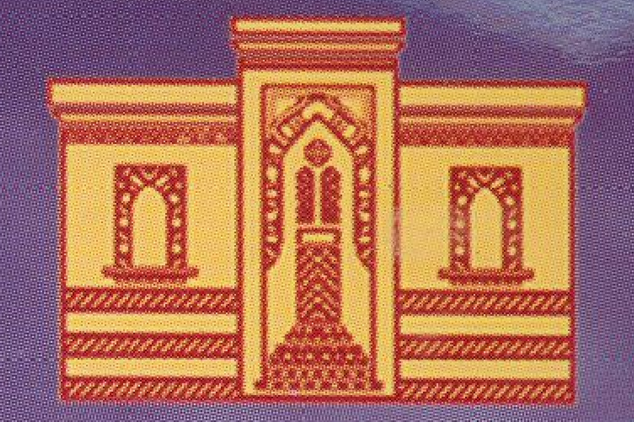


دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

مصر واستشراف المستقبل

قضايا قديمة جديدة

مجموعة البحوث التى ألقيت فى الفترة
إبريل - يونيو ٢٠٠٠

الموسم الثقافى الثانى

تقديم
أ.د. يونان لبيب رزق

إعداد
د. حنان محمود   أ. آمنة حجازى

تصدير
أ.د. رفعت حسن هلال

مصر واستشراف المستقبل

«قضايا قديمة جديدة»



الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

مصر واستشراف المستقبل
«قضايا قديمة جديدة»

مجموعة البحوث التى ألقيت فى الفترة
(إبريل - يونيو ٢٠٠٠)

الموسم الثقافى الثانى

تقديم
أ. د. يونان لبيب رزق

إعداد

د. حنان محمود　　　　أ. آمنة حجازى

تصدير
أ. د. رفعت حسن هلال

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد صابر عرب

الموسم الثقافى (2 : 2000 : القاهرة)
مصر واستشراف المستقبل: قضايا قديمة جديدة: مجموعة البحوث التى ألقيت فى الفترة (إبريل. يونيو 2000)/ تقديم يونان لبيب رزق؛ إعداد حنان محمود، آمنة حجازى؛ تصدير رفعت حسن هلال. ـ القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية للمراكز العلمية، مركز تاريخ مصر المعاصر ، 2005.
91 ص ؛ 29 سم.
تدمك 1 - 0389 - 18 - 977

٣٠١,٢٠٦

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٥/١٥٤٢٧
I.S.B.N. 977 - 18 - 0389 - 1

تصدير

لانغالى إذا قلنا أن الحراك الثقافى أحد أهم المخططات الفاعلة للمستقبل فى مصر ، ولعل الدراسات النشطة التى تلقى اهتمامًا فى الوقت الراهن تتعلق باستشراف المستقبل لتصحيح عثرات الماضى وتكريس إيجابياته ، الأمر الذى يحافظ على خصوصية الهوية المصرية المتميزة .

ولقد تبنى مركز تاريخ مصر المعاصر قضية استشراف المستقبل المصرى من خلال قضايا فكرية أثيرت قيدمًا ولها صداها فى عصرنا الحالي ، الأمر الذي احتاج إلى الخروج بمفاهيم واضحة إزاء هذه القضايا ، وكان من أهم تلك القضايا التى طرحت ، بين العلم والخرافة والذى عنى بضرورة إعمال قواعد العلم والعقل في القضايا المعاصرة ، ومحاربة الخرافة والجهل والدجل للخروج من دائرة التخلف خاصة وأن طرح تلك القضايا له أثره على الأمن القومى وعلى وجودنا ووجود أبنائنا .

لقد راع المسئولون عن الموسم الثقافى أن تكون محاولات استشراف المستقبل متنوعة ، فجاءت الأوراق المطروحة لتعطى رؤية لمحاربة الخرافة بالعلم ، وضرورة الاحتكام للعقل فى القضايا الخلافية ، خاصة وأن العقل لا يصطدم مع الفطرة السلمية .

كذلك فى أن التعليم ودوره فى المسيرة المصرية ، احتاج لتصفح أوراقه فى ظل الدعوات المتكررة المنادية باعودة إلى أصوله «الكتاتيب» ، وهو الأمر الذى احتاج لتقديم رؤية قوية إزاء إرساء مشروع قومى حضارى للتعليم باعتباره مصدر من مصادر الاستنارة يقود الوطن فى نهضته المستقبلية ، ولاشك فى أن ما استقر فى الوجدات المصرى والعربى من أن الانعكاسات التى ألمت بالأمة راجعة بالدرجة الأولى إلى «نظرية المؤامرة» ، فإن تحرير العقل المصرى من هذه الخرافة التى ألجأته إلى التصالح مع أخطائه والتسليم بهذه النظرية لدفع نقيصة التمصير عنه ، هذا الأمر كان فى حاجة إلى إعادة قراءة لمواجهة التحدى الحضارى ، والعمل على تصحيح الأخطاء التى أدت إلى نجاح «المؤامرة» فى حالة وجودها ، وبالتالى فإن التعامل مع الغرب فى المستقبل يحتاج إلى إعادة صياغة العقل حتى لاتدفعنا هذه النظرية إلى الصدام مع الغرب بالانتحار أو الاستسلام .

وقد اكتملت ملامح تجربة استشراف المستقبل بوضع رؤية منهجية لما يجب أن تكون عليه الأحزاب السياسية فى مصر فى المستقبل بعد أن بيّن الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق ضرورة إعادة النظر فى البرامج والأشخاص .

إن هذه الأوراق التى ينشرها مركز تاريخ مصر المعاصر ، تقدم رؤية منهجية لاستشراف المستقبل فى قضايا على قدر كبير من الأهمية فى هذه المرحلة المهمة من تاريخنا المعاصر ، ولعل هذه الأوراق تعطى الفرصة لمزيد من النقاش والتحاور فى مجالات أخرى لاستشراف المستقبل وهو ما سوف يعمل المركز على إثرائه فى الأيام القادمة .

إن هذا الجهد العلمى الذى بيدن يدىّ قرائنا الآن وقف خلفه مجموعة متميزة من الباحثين بمركز تاريخ مصر المعاصر الذين بذلوا جهودًا كبيرة لكى تخرج الحلقات النقاشية وما تمخض عنها فى أبهى صورة ، لذلك فلهم كل الشكر والتقدير على كل ما قدموه ، وهو عهدنا بهم دائمًا . وأخص بالشكر والتقدير الباحثة مسئولة عطية على لحماسها الشديد الذى كان له بالغ الأثر فى خروج هذا العمل إلى النور .

أ . د . رفعت حسن هلال

رئيس الإدارة المركزية للمراكز العلمية

تقديم

يضم هذا الكتاب خمس محاضرات ألقيت فى الموسم الثقافى لمركز تاريخ مصر المعاصر ، يربط بينها خيط واحد ، هو تبين مواقع الضعف فى المسيرة المصرية بينما يلفظ القرن العشرون أنفاسه الأخيرة ، للانطلاق منها نحو مستقبل نتجنب فيه هذه المواقع التى تشدنا إلى الوراء فى عالم ينطلق بسرعة صاروخية نحو الأخذ بمزيد من أسباب التقدم ، حتى لا نبقى « نايمين فى العسل نوم »!

فبينما يلقى العالم جانبا بعضا مما تبقى من خرافات العصور الوسطى ، والأخذ بالفكر العقلانى فى شتى مناحى الحياة ، إذا بها تنتعش فى مصر ، وفى العالم المحيط ، ويوافق الأستاذ الدكتور سمير حنا صادق ، مقرر لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة ، على أن أوروبا قد مرت بهذه المرحلة ، لكن قبل أكثر من خمسة قرون !

وفى مثل هذا المناخ فإن العقل المصرى لا يتقبل بسهولة إعمال الفكر ، ومن ثم جاءت المحاضرة التى ألقاها المفكر الكبير الأستاذ محمود أمين العالم عن «الاحتكام إلى العقل بين طه حسين ونصر حامد أبو زيد» تطبيقا للمحاضرة السابقة ، فالخرافة تحارب إعمال العقل ، وُقصد بالمقارنة بين رد الفعل لكتاب طه حسين الصادر عام ١٩٢٦ تحت عنوان «فى الشعر الجاهلى» وبين ردود الفعل على كتابات «نصر حامد أبو زيد» أن تبين ما حدث من تغير المواقع ، ولكن إلى الوراء !

وكان مطلوبا تمحيص الدعوة التى تفشت خلال السنوات الأخيرة للعودة إلى التعليم بالكتاتيب تحت دعوى ما أصاب اللغة العربية من تدهور ، وقد فات الداعين أن نظام التعليم «منظومة» متكاملة تحكمها فلسفة بعينها ، ولما كانت الكتاتيب تجسد فلسفة «التلقين والاستظهار» ، وهى الفلسفة التعليمية التى هجرها العالم قبل وقت طويل ، وأخذ بفلسفة إثارة الأفكار ودفع العقل البشرى إلى إخراج أفضل ما فيه ، وليس الأخذ بخطى السلف ، مهما كان صالحا (!) ، فلكل عصر أفكاره وإبداعاته ، وإلا نكون قد حكمنا على التقدم البشرى بالإعدام ، من ثم جاءت المحاضرة التى ألقاها شيخ

التربويين الأستاذ الدكتور حامد عمار تحت عنوان «بين العودة للكتاتيب والانطلاق نحو التعليم العصرى» لتواجه هذه الدعوة الغريبة !

كان مطلوبا أيضا مواجهة اعتماد «نظرية المؤامرة» لتفسير أسباب الانتكاسات التى لاحقت المصريين والعرب خلال العقود الأخيرة ، بالتصور أنهم دائما ضحايا لمؤامرة من العالم المتقدم ، وقد أغفل أصحاب هذه النظرية حقيقة مفادها أن الوقوع ضحية لمؤامرة قبل أن يكون نتيجة «لمهارة الطرف المتآمر» ، فهو نتيجة «لخيبة» الطرف المتآمر عليه ، ثم أنها تقود إلى نتيجة أخرى وهى التحلل من مسئولية النكسات التى تنزل بالشعوب العربية الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى أن تبقى «محلك سر» ، وهو ما تفضل بشرحه الأستاذ الدكتور عبد المنعم سعيد .

آخر محاضرة فى هذا الموسم التى ألقاها الدكتور يونان لبيب رزق سعت إلى محاولة تشخيص أسباب ضعف التجربة الحزبية فى مصر ، باعتبارها موقعا آخر من مواقع الضعف ، وكان رأى صاحب المحاضرة أن غلبة الطابع الشخصى على طابع البرنامج من أهم أسباب هذا الضعف . . فالبرامج تتطور والأشخاص يموتون !

وإذ تأمل اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر التى أعدت هذا البرنامج ، وإدارته التى قامت على تنفيذه ، أن تكون قد وُفقت فى اختيار الموضوعات والمتحدثين فإنها تعد بعقد مزيد من المواسم الثقافية التى تقدم التاريخ باعتباره أحد أسباب التقدم ، وليس لتقديم المثل أو الأمثولة فحسب .

وعلى الله قصد السبيل ،،،

أ .د . يونان لبيب رزق

مقرر اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر

أ .د . سمير حنا صادق*

بين العلم والخرافة

لا نتحدث هنا عن العلم بمعناه المعروف لدى عامتنا والذى يعبر اسم الفاعل فيه أحيانا عن طيف واسع من الأشخاص يبدأ بعالم يجلس أمام كمبيوتر أو جهاز للتجارب ، ويمر برجل يشتغل بقراءة أبراج الكواكب لتحديد الحظ ويسمى نفسه «عالم التنجيم» ، وينتهى بسيدة ترقص فى الموالد والأفراح وتسمى «عالمة» .

إنما نحن نتحدث عن العلم بمعناه الحديث ، معناه الذى اكتسبه منذ أقل من قرنين عندما انفصلت مجموعة من المواضيع عن الدراسات الفلسفية وأطلق عليها اسم Scientia أي بمعنى المعرفة الذى ترجم إلى Science . وهكذا تبلورت وسيلة جديدة للمعرفة تعتمد على افتراض أن العالم يخضع لقوانين وأن هذه القوانين قابلة للمعرفة وأن هذه المعرفة قابلة للتصحيح والإضافة وأن هذه المعرفة يمكن تسخيرها لخدمة من يملكها . وهكذا نمى وترعرع ما يصفه بعض فلاسفة العلم بأنه أنجح مشروع للمعرفة ابتكرته البشرية .

أصبحت الإضافة إلى المعرفة البشرية تتسارع يوما بعد يوم ، وأصبح المجال الذى تعمل فيه هذه المعرفة العلمية أكثر اتساعا حتى شملت العديد مما يطلق عليه اسم العلوم الإنسانية . وأصبحت المعرفة البشرية بفضل العلم تتضاعف الآن مرة كل ٨ سنوات – أي أن ما يمتلكه الآن الإنسان من معرفة يبلغ تقريبا ضعف ما كان يمتلكه عام ١٩٩٢ . ولقد حققت بلاد العالم المتقدم بفضل هذه المعرفة أهدافا عظيمة فى مجالات الصحة والتعليم والاتصالات والمعلومات والأمن القومي . كما زادت سرعة انتقال الاكتشافات العلمية إلي مجالات التطبيق التكنولوجي . فبينما استغرق تطبيق معادلات مكسويل الرياضية عقودا طويلة حتى وصلت إلى تكنولوجيا التليفزيون ، فإن قوانين الليزر لم تستغرق إلا سنوات قليلة لتستعمل فى ميادين الصحة والقتال والاتصالات .

* أ . د . سمير حنا صادق : أستاذ متفرغ بكلية الطب جامعة عين شمس ، مقرر لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة ، فاز كتابه عصر العلم بجائزة أحسن كتاب علمى لليوبيل الفضى للهيئة المصرية العامة للكتاب ، له مؤلفات فى تاريخ العلم .

لقد وضعنا تقدم العلم هنا فى مصر فى مأزق حضارى حرج ، فالثغرة بيننا وبين العالم المتقدم تنمو يوماً بعد يوم . ويضاعف من خطورة الموقف وجود وحش ضار يعيش بجوارنا تم زرعه لتأمين مصادر الوقود الحفرى وهو مسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بترسانة من كافة الأسلحة من أبسطها إلى أسلحة الدمار الشامل . وقليل منا قد يخدع نفسه بالشك فى الأهداف التى يرمى إليها هذا الوحش الكاسر ، والتى حقق جانبا منها بالفعل . فابتلع بلدا بأسره وغزا أربعة من جيرانه وابتلع أجزاءً من أراضيهم .

وقد يفيدنا هنا أن نقرأ ما كتبه الدكتور نادر فرجانى فى بحث لمؤسسة المشكاه عن المقارنة بين العلم لدينا والعلم لدى إسرائيل للكشف عن أرقام مفزعة . فعدد المشتغلين بالعلم بالنسبة للسكان يبلغ مائة ضعف النسبة عندنا وكذلك النشر العلمي هذا عن الكم ، أما عن الكيف فيكفى النظر إلى بعض مؤسساتنا العلمية لنحس بمدى خطورة موقفنا . فنحن لدينا مثلا المركز القومي للبحوث وبه ٦٢ قسماً تعمل فى مجالات الصحة والبيئة والزراعة والصناعة ويعمل به ٢٢٠٠ باحث منهم ١٢٠٠ باحث حامل للدكتوراه . وهو بهذا يعادل بالأرقام عشرة أضعاف «معهد وايزمان» فى إسرائيل وأترك الفارق فى الأداء لما يعرفه الجميع .

ومن أجمل الكتب التى حظيت بها المكتبة المصرية هذه الأيام كتاب ترجمه الأستاذ الدكتور أحمد مستجير بعنوان «عقل جديد لعالم جديد» يتحدث هذا الكتاب عن أزمة العقل عند الإنسان المعاصر . فمخ الإنسان وحواسه معدة لتفادى الأخطار الآتية :

كرؤية حيوان يهاجم ، أو طعم طعام فاسد ، أو سخونة شئ ملتهب . وقد كفل هذا العقل وهذه الحواس فى الماضي حماية كافية للجنس البشرى لتمكنه من معيشة معقولة ولتوريث جيناته جيلا بعد جيل . ويوضح الكتاب أن هذا العقل وهذه الحواس لم تعد تفي بوظائفها . فمن الممكن أن نتعاطى مئات من السموم التى تنتج عن المجتمع الصناعي والتى لا طعم لها ولا رائحة دون أن نشعر بها ، ومن الممكن أن نتعرض للإشعاعات القاتلة دون أن نهرب منها . ومن الممكن أن تتسمم أجسادنا كما يحدث بالفعل الآن بكميات قاتلة من المعادن الثقيلة ومبيدات الحشرات دون أن ننتبه لذلك .

هناك أيضا قضايا جديدة تحتاج لعقل جديد لمعالجتها . هناك قضايا مثل قضايا البيئة وقضايا أخلاقيات البيوتكنولوجى وغيرها . ونحن فى مصر لدينا قضايا هامة نحتاج إلى مواطن له عقل جديد للنظر فيها . هناك قضايا مثل مواجهة التكنولوجيا الحديثة فى الطب مثل نقل الأعضاء . ويكفى ما حدث مثلا فى مأساة نقل القرنية التى حكم فيها الرأي العام على الألوف من العميان بفقدان النظر بلا رحمة نتيجة لفتوى متزمتة .

إن ازدراء العلم وسيطرة الخرافة على الرأي العام يمكن أن يتسبب فى كوارث نحن فى غنى عنها ، وسأعود إليها فيما بعد .

ولست فى حاجة إلى سرد ما قدمه العلم إلى الإنسان . يكفى أن نتذكر أن متوسط عمر الإنسان فى العالم المتقدم قد ارتفع خلال جيل أو جيلين من ستين عاماً إلى ثمانين عاماً وارتفع فى مصر من خمسين عاماً إلى ستين عاماً وأن الجدري قد اختفى وأن شلل الأطفال قد قل خطره . وأن الحمرة وروماتزم القلب قلت وأن إسهال الأطفال قد قلت مضاعفاته . ولم يحدث كل هذا بفضل ابتكار رقصات جديدة للزار بل بفضل تطبيق حقائق علمية . ولكن إلى جانب كل هذه الأشياء وغيرها مثل وسائل الاتصال والمعلومات والعلاج والسفر . . الخ فإن هناك عامل آخر علينا أن نحترمه كواجب مقدس وهو أمننا القومي . فنحن نعيش الآن فى عالم لا مكان فيه لجاهل ضعيف . فالقوى المسلح بالعلم يفترس الضعيف المحروم منه ويحرمه من مادياته ووجدانياته ومقدساته . وهذا وقبول الخرافة ورفض العلم ظاهرة صعبة التفسير . فالعلم أجدى حتى للمنفعة الشخصية البحتة : فيمكنك محاولة علاج ابنك المصاب بالتيفويد بحجاب أو بالزار ولكنك تكاد تضمن نجاح العلاج لو أعطيته المضاد الحيوي المناسب ويمكنك محاولة وقاية ابنك بالتمائم من شلل الأطفال أو الحصبة أو الدفتريا ولكن النتيجة شبه مضمونة لو استعملت التطعيم المناسب .

ولكن ما هو حال العلم عندنا؟

اسمحوا لي أن أذكركم بما نسيناه جميعا من ماضينا الملئ بالأمجاد العلمية . لقد نما العلم وترعرع فى مكتبة الإسكندرية . لم تكن مكتبة الإسكندرية التى عاشت لمدة سبع قرون (من ٣٤٠ ق .م إلى ٤٠٠ بعد الميلاد) مجرد مكتبة ، بل كانت أربع منشآت :

السرابيوم Serapis Osirapid ، السماء أو مقبرة الاسكندر ، المكتبة وكان فيها ما يزيد عن ٥٠٠ ألف كتاب (لفافات بردية) ومركز للعلوم .

أما الآن فبعد المراحل المستنيرة من بداية القرن إلى منتصفه حدثت ردة لها مظاهر عديدة أوضحها – وإن لم يكن أهمها – ما حدث فى الجامعات وهو ما أطلق عليه اسم «اختراق قلعة الألقاب العلمية» .

ففى الأربعينات كان يرأس العديد من الأقسام فى الجامعات أساتذة أجانب ، وأغلب أجيالنا القديمة من الأطباء ، أطال الله فى عمرهم ، قد تلقوا العلم على أيدي Shaw,wilson,Derry & Anreb . وكانت كلية العلوم تبعث رسائل الماجستير والدكتوراه وأبحاث أعضاء هيئة التدريس للتقييم والنشر فى الخارج .

ومع نمو الحركة الوطنية ، خصوصاً بعد ثورة ٢٣ يوليو ، تم طرد الأساتذة الأجانب من مصر وأصبح يرأس الأقسام الصف الثاني من العلماء المصريين الذين درسوا العلم على أيدي الأساتذة الأجانب . وساعدهم على ذلك وفود العائدين المؤهلين من الخارج الذين أرسلت ثورة ٢٣ يوليو مئات منهم . واستمرت بعض الكليات (مثل كليات العلوم) فى اللجوء إلى الخارج لتقييم الرسائل والأبحاث .

وبعد ازدياد عدد الطلبة ، وإنشاء الجامعات الإقليمية بدأ – وبصورة متسارعة – انهيار كافة السدود والاستحكامات أمام الأساتذة غير الأكفاء إلى ميادين الألقاب العلمية .

فقد تم فى كل كلية – إن لم يكن فى كل قسم إنشاء مجلة لنشر الأبحاث العلمية التافهة ، بل لقد أنشأ بعض الأساتذة من مدعى العلم مجلات علمية قطاع خاص ، وهى جميعاً مجلات لا يشتريها أحد ولا يقرأها أحد ، وقبول النشر فيها لا يرتبط بمستوى علمي بل يرتبط بدفع رسوم معينة تؤهل دافعها أن يتقدم للجان الترقية بما يزعم أنه «بحث منشور» .

ومع ربط الدرجات المالية بالدرجات العلمية ، أصبح من الصعب الوقوف فى وجه توفير الاحتياجات المالية الأساسية لعضو هيئة التدريس ، وتسرب إلى عضوية اللجان العلمية الدائمة المسئولة عن ترقى أعضاء هيئة التدريس ، من لا يفهمون الكثير عن البحث العلمي . وأصبحت الترقية إلى درجة أستاذ عملية روتينية لا يحرم منها إلا من

غضب عليه بعض كبار الأساتذة لأسباب شخصية ، بل أن قرارات رفض اللجان الدائمة استشارية ، تلغيها في أغلب الأحيان مجالس الأقسام ومجالس الكلية .

وهكذا اختلط الحابل بالنابل ، وامتلأت أقسام الجامعات بالعشرات من الأساتذة يتفوقون في عددهم على عدد المعيدين ،وأصبح هناك ما يسمى بالهرم المقلوب ، ودخل إلى صفوف العلماء من لا علاقة لهم بالعلم ، وأصبح من حق هؤلاء الإفتاء فيما لا يفهمون ، كما أنهم باقون في مناصبهم إلى سن المعاش ، بل وبعده .

لا عجب إذن أن استشرى تآكل المنهج العلمي في كلياتنا العلمية وفي مراكز البحوث ، وبعد أن كانت تلمع في كلياتنا العلمية أسماء مثل مشرفة والقصاص ورشدي سعيد وطلبة ومختار وأنور المفتى وبول غليونجى أصبحت بعض كلياتنا موبوءة بمدعى العلم والدجالين ، فمن اكتشاف مزعوم لأعشاب تعيد الحياة إلى الحيوانات المنوية ، إلى مشروع في كلية طب لعقد مؤتمر عن العلاج بالعفاريت ، إلى مقال في إحدى المجلات العلمية من عدة صفحات يزعم اكتشاف اسم الجلالة في خلايا حية ، إلى قضايا في مركز علمي هام عن حق اكتشاف علاج لفيروس سى بالأعشاب .

لقد اخترقت قلعة الألقاب العلمية وأصبح الأستاذ المزيف يطرد الأستاذ الحقيقي .

ويجب علينا في هذا المجال أن نضيف إلى هذا التدهور كارثة تخلف أجهزة الإعلام . فقد لعبت مذيعات ومذيعو التليفزيون دورا خطيرا في خلق قاعدة من التخلف والدجل في المجتمع المصرى ساهمت بجانب السياسة التعليمية الخاطئة في المأساة المجتمعية التى نعيشها الآن .

هذا عن العلم ، فماذا عن الدجل ؟

لما كان الدجل عملية عشوائية بطبيعته ، فلا يمكن دراسته كمنظومة ، ولكننا يمكن تقسيمه إلى نوعين :

النوع الأول الدجل الصريح والواضح - مثل العلاج بقتل الديوك أو أجزاء من السحالي أو قراءة الأثر . . إلخ ـ وهو نوع مكشوف لا حاجة لنا لمناقشته وتتبع آلياته ، إلا لظاهرة انثروبولوجية لا مكان لها هنا .

لكننا سنناقش النوع الآخر الأكثر خطورة : إذ أنه دجل يتمسح بالعلم ، ويطلق عليه بعض العاملين فى مجالات الثقافة العلمية اسم «العلم الزائف Pseudo science» .

وبشكل عام يواجه كل علم تقريبا بعلم زائف - فيواجه علم الفلك بالتنجيم ، ويواجه علم الأدوية بطب الأعشاب أو «الطب البديل» ، ويواجه علم الجيولوجيا بقصص القارات المختفية ، ويواجه علم النفس بالباراسيكولوجى مثل تحريك الأشياء عن بعد Telekinesisوالاتصال عن بعد Telepathy ويواجه علم الأحياء بقصص وحوش البحيرات مثل وحش بحيرة نس Ness وإنسان الثلوج ويواجه علم الفضاء بقصص عن زوار الفضاء الخارجي .

وليسمح لي السادة الأعزاء بمناقشة بعض أنواع العلوم الزائفة .

كانت قصص الأجسام الطائرة المجهولة الهويةUFO والأطباق الطائرة flying saucers وزوار الفضاء الخارجي ولا زالت موضوعاً مسليا فى الولايات المتحدة الأمريكية ومصدرا أساسيا لقصص أفلام هوليود المثيرة بداية من Et إلى «يوم الاستقلال» . ولكنها كحقيقة موضوعية قد حسمت فى رأى العقلاء مقولتين :

أولا- يعتقد أغلب المشتغلين بالفلك وبعلوم الفضاء أن احتمال وجود حياة خارج كوكب الأرض هو بالحساب احتمال كبير جدا . فلا بد ، ما دامت هناك آلاف البلايين من النجوم والكواكب ، من وجود بعض الأجرام الفضائية التى تتوفر فيها الظروف التى تسمح بنشأة الحياة وهى فكرة مثيرة للخيال والتأمل . ولكن الاتصال المباشر بهذه الحياة الخارجية مسألة أخرى ، إذ أن معظم المجرات الموجودة فى الفضاء الخارجي تبعد عنا بآلاف بل بملايين السنين الضوئية ، وسرعة الضوء هي الحد الأقصى لأي سرعة نعرفها حتى الآن . وعلى هذا فإن الاتصال المباشر (عن طريق الانتقال) بهذه الأحياء - إن وجدت - عملية شبه مستحيلة .

ولكن من الممكن نظريا على الأقل ، محاولة إرسال أو تلقى موجات بإشارات لاسلكية تختلف فى نظمها عن الإشارات العشوائية ، (التى قد تنتج عن بعض الانفجارات فى الأجرام السماوية) ، مما يثبت أنها «مصنوعة» بعقل يفكر . ولقد بدأت هذه المحاولات (للإرسال والاستقبال) منذ عقدين تقريبا ولم يحدث أي اتصال حتى الآن . وقد وضع هذا البرنامج باسم «سيتي» (Search for Extra Terrestrial Intelligence) SETI

ثانيا- إن كل الادعاءات عن مقابلات مع زوار من الفضاء الخارجي ، أو مشاهدات لأطباق طائرة قد ثبت كذبها . وقد عقد رجال سلاح الطيران الأمريكي مؤتمرا صحفيا فى يوليو ١٩٩٧ أوضحوا فيه أن جانبا كبيرا من هذه المشاهدات قد حدث نتيجة لتجارب للسلاح فى منطقة معينة من الولايات المتحدة .

فقد عقد سلاح الطيران الأمريكي مؤتمرا صحفيا مطولا مليئا بأفلام الفيديو والصور الموضحة أوضح فيه المتحدث الرسمي أن مشاهدات روزويل قد نتجت عن تجارب أجريت فى معسكر مجاور للبلدة لتجربة مجموعة من بالونات التصنت والتجسس بمشاريع تحت أسماء مختلفة (genetrix) Skyhawk, mogul, moby dick, grandson, وأن هذه البالونات كما وضح من الصور تظهر من أسفل وكأنها أطباق طائرة وأن استجابتها لتيارات الهواء كان يظهرها وكأنها محاولة لدراسة أثر السقوط على الجسم . وظهر أيضا أن العسكريين من العاملين بالمنطقة كانوا يهرعون إلى أماكن هبوط هذه الأجسام لجمع أشلائها ولدراستها وللمحافظة على سرية العملية .

وهكذا انتهت فى أمريكا بين العقلاء على الأقل ، أسطورة الأطباق الطائرة وزوار العالم الخارجي . ولكنها ، كالعديد من غيرها من أمراض حضارة آليات السوق المعاصرة ، قد انتقلت إلينا لتمد جذورها فى أرضنا الخصبة ، ولتبقى .

لم يكن الموضوع يحتاج إلى مؤتمر سلاح الطيران الأمريكي . فبين أكثر من مليون مشاهد UFO منذ عام ١٩٤٧ ، لم يثبت فى أي واحدة منها أنها لم تنتج عن سوء الفهم ، أو الإدعاء الكاذب ، أو الهلوسة . وكل هذه المشاهدات تثير تساؤلات عديدة وهامة ، ولعل أهم هذه التساؤلات وأوضحها هو : لماذا فى الولايات المتحدة فقط؟ لماذا اصطفى زوار الفضاء الخارجى بعنصرية واضحة الولايات المتحدة ليخصوها بزياراتهم؟ لماذا لم يشاهد ملايين من سكان المناطق البعيدة عن المدن فى مصر ، حيث السماء صافية وحيث «يحلى السهر» بعض هذه الأطباق الطائرة ؟

ولكن لعل حكايات الاختطاف إلى الأطباق الطائرة أكثر إثارة من افتعال مشاهدة هذه الأطباق . ولقد تعدى تعداد هذه الأقاصيص فى أمريكا فى السنوات الأخيرة الآلاف . ويحسب العلماء أنه إذا صحت هذه التقارير ، وإذا لم يكن لدى زوار الفضاء

تميزا عنصريا فى من يختطفونه فإنه لا بد أن ملايين من سكان العالم قد اختطفوا ثم عادوا خلال النصف قرن الأخير .

ويتحدث أغلب المختطفين (بفتح الطاء طبعا) عن تغمية عيونهم ، ثم أخذهم إلى داخل مركبة فضاء ، حيث يزال غطاء العين ويحدثهم الزوار (وهم عادة لهم رؤوس كبيرة وأجسام صغيرة ، وعيون جاحظة ، وشعر أصفر طويل) عما يمر به العالم الآن من أزمات ، ثم يأخذون منهم عينات من السائل المنوي للذكور ومن المبايض للإناث .

ويلفت العلماء الدارسون لهذه الظاهرة النظر إلى أنه :

أولا- يتحدث زوار الفضاء دائما عما يحيط به العالم من مشاكل فى فترة الاختطاف . فلقد كان الحديث أولا عن حرب الذرة ، ثم أصبح عن ثقب الأوزون ومرض الإيدز ، ويتساءل العلماء إذا كان هؤلاء الزوار قد بلغوا ما بلغوه من تقدم علمي فلماذا لم يتحدث أحدهم عن ثقب الأوزون قبل اكتشافه أو عن الاستنساخ قبل دراسته؟

ثانيا- يتحدث المختطفون عن أجهزة علمية طبية فى الأطباق الطائرة ، ولكن هذه الأجهزة (ميكروسكوبات وخلافه) لا يختلف عما يشاهد فى مستشفيات الأرياف فى أمريكا .

ثالثا- ما يذكره المختطفون عن خرائط الكواكب التى شاهدوها فى الأطباق الطائرة لا يختلف عما درسوه فى المدارس من خرائط حتى وأن كان قد ثبت خطأ بعض تفاصيلها .

رابعا- يماثل شكل المختطفين (بكسر الطاء) حسب وصف المختطفين (بفتح الطاء) ما شوهد فى أفلام زوار الفضاء .

خامسا- ويتساءل العلماء إذا كان فى مقدور هؤلاء الزوار أن يمروا من خلال الأجسام الصلبة (كما وصفهم البعض) وإذا بلغوا من التقدم شأوا كبيرا فلم يتعبون أنفسهم فى هذه العمليات الساذجة ؟ لماذا لا يستولون على إحدى محطات إذاعة التليفزيون لإذاعة بيان تتحقق به أغراضهم ؟ لماذا هذه العمليات الساذجة بأخذ عينات من السائل المنوي والبويضات ؟ لماذا لا يستنسخون إنسانا كاملا؟

سادسا- تحتوى الكثير من منازل الأمريكيين على أجهزة إنذار مزودة بكاميرات فيديو تعمل استجابة لوجود أي غريب بالمنزل . لماذا لم تسجل هذه الكاميرات ولا واحد من حوادث الاختطاف المزعومة؟

* * *

كان أول لقاء مزعوم بين البشر وبين زوار الفضاء فى كاليفورنيا ، وكان المختطف شخص يدعى George Adamsky يمتلك مطعما صغيرا بجوار أكبر تلسكوب فى العالم على جبل Palomar أطلق Adamsky على نفسه لقب Professor وركب تلسكوباً بسيطاً خلف مطعمه ونشر عدة كتب عن لقاءات مع زوار فضاء يلبسون أردية بيضاء واسعة ، ولهم شعر طويل أصفر ، وتحدث عن أنهم جاءوا من كوكب الزهرة . ولكن ، لم يكن العالم يعرف فى ذلك الوقت ما يعرفه الآن ، وهو أن درجة الحرارة على سطح كوكب الزهرة لا تسمح بوجود أي حياة !!! وانهالت بعد هذه الحكاية ؛ التقارير عن زوار العالم الخارجي .

ويأتي جانب كبير من هذه الحكايات طبعا من المرتزقة ولكن هناك جانب أخر لابد أن يعترف به ، إذ يقدر المشغلون بالعلوم النفسية أن حوالي ٢٥٪ من الجنس البشرى يمرون أثناء حياتهم بفترات من الهلوسة Hallucinations يسمعون أو يرون فيها ما لا وجود موضوعي له . ولعل هذا يمثل جانبا كبيرا من اللقاءات مع زوار الفضاء . ويدل على هذا ارتباط العديد منها بالتناسل مما قد يصحب الهلوسة الناتجة عن الكبت الجنسي أو عن الاعتداءات الجنسية خصوصا فى الطفولة .

وتمثل «الهلوسة» أحد الخواص الهامة للجنس البشرى . والهلوسة هو تصور المرور بتجربة لم تحدث حقيقة . ومن الممكن أيضا أن نتصور أنها بشكل ما قد تكون لها قيمة إيجابية تساهم فى البقاء ، فلو تصورنا مثلا طفلين فى غابة تركا فى الظلام فتخيل أحدهما وجود حيوانات مفترسة ، أو عفاريت ، فصرخ فانتبه أهله إليه ولم يتصور الآخر هذه العفاريت ، فإن فرص الحياة للطفل الأول «المهلوس» أكبر من فرص حياة الطفل الآخر .

ليس لدينا أرقام إحصائية عن انتشار الظاهرة فى مصر ، ولكن بعض الإحصائيات

الأمريكية على عينة من ٦٠٠٠ بالغ تقول أن حوالي ١٨٪ من الأمريكيين قد سجلوا الشعور بوجود أشخاص معهم في الظلام ، ١٣٪ سجلوا الشعور «بأزمنة مفقودة Missing times» في يومياتهم ، ١٠٪ سجلوا تجربتهم في الطيران الذاتي في الهواء . ولقد كانت هذه الهلوسة هي أحد الأسباب الرئيسية لقصص «الخطف» في مراكب الفضاء . ولعله من الأشياء الدالة أن بعض من تكرر اختطافهم المزعوم قد شفوا تماما من هذه الأختطافات بعد تعاطي عقار Carbamazepine . وفي تقرير لمعهد جالوب نشر في سبتمبر ١٩٩٤ أن حوالي ثلاثة مليون أمريكي يعتقدون أنهم اختطفوا بواسطة زوار الفضاء الخارجي .

وتعتبر القابلية للإيحاء Suggestibility أحد الخواص الهامة للعقل البشري وتزداد هذه القابلية بما يطلق عليه أسم التنويم المغناطيسي وتصل إلى حالة ارتفاع في القابلية للإيحاء Heightened suggestibility وغيره من الظواهر .

ومن أشهر قصص تأثير الإيحاء على الذاكرة هي قصص الرئيس ريجان ، فقد كان يذكر أثناء حملته الانتخابية مغامرات له في الحرب العالمية الثانية ، وهي الحرب التي لم يشترك فيها إطلاقا ، وإنما كانت ذاكرته عنها من وحي أفلامه .

الهلوسة إذن منتشرة جدا والتمييز بين الحقيقة والهلوسة واجب من الضروري إشتراطه قبل استنتاج النتائج .

إذا كان المصدر الأول الأساسي للخرافة هو خواص العقل البشري كالهلوسة أو القابلية للإيحاء فإن المصدر الثاني هو استغلال المنتفعين والنصابين لهذه الخواص .

وقد انتشر الدجالون والنصابون في أوروبا في القرون الوسطى ، فبعد مكتبة الإسكندرية وفي الوقت الذي ازدهر العلم والطب في العالم الإسلامي دخلت أوروبا في العصور المظلمة . ففي الطب إختفت معظم المعلومات عن التشريح والعلاج ، واعتمد الناس على «الطب البديل» في العلاج ، واختفى الأطباء العلميون ولجأ الناس مرة أخرى إلى قراءة الطالع واستعمال التمائم . وحرم تشريح الجثث فتوقف البحث العلمي الطبي وأصبح الوضع مماثلا لما وصفه Edward Gibbon في كتابه الشهير عن سقوط الإمبراطورية الرومانية قال فيه «في خلال عشرة قرون لم يقدم اكتشاف واحد يرفع كرامة الإنسان أو يزيد في سعادته» .

منذ ذلك الوقت ، ازدهر الدجل ودخل إلى الثقافات الأوربية ، فاكتشف مثلا «كفن تورين» الذى زعم أنه كفن السيد المسيح ، اتضح بعد ذلك من دراسة بالكربون المشع أنه صنع فى القرن الرابع عشر .

وقد تكون أكثر الخدع انتشارا بمقاييس عديدة ، هو الديانة الهندسية الجديدة المسماة «التأمل المتسامي Transcendental meditation» وتستطيع إذا كنت من مشاهدي التليفزيونات العالمية ، رؤية الصورة المعظمة للقائد الروحي للديانة Maharashi Maheshyogi بشعره الأبيض الطويل الممتد خلف ظهره وهو جالس فى وضع يوحى ، محاطا بالزهور والورود والرياحين . تمتلك المنظمة حوالي ثلاثة بلايين دولار وبأجر صغير تزعم الجماعة أنها ستمتلك من المرور خلال الحائط والمقدرة على الاختفاء والطيران الذاتي . وتمتلك الجماعة مراكز للبحوث وللعلاج وللمنظمة أيضا فرع فى المعادى فى مصر .

وقابلية بعضنا للخداع والدجل غريبة جدا . فمن العجيب أننا نرى فى الموالد الشعبية رأسا بشرية بلا جسد تتحرك وتتكلم ، ونرى على شاشات التليفزيون David Copperfield وهو يخفى تمثال الحرية أو سور الصين أو وهو يرفع جسد سيدة فى الهواء ويقسمها إلى نصفين ، فنعرف أن كل هذا خداع ، ولكننا نصدق من يزعم لنا أنه سيشفينا بوضع حجاب فى جيبنا . ومن العجيب أننا عند شراء بوتاجاز أو ثلاجة فإننا نسأل ونستفهم عن خواصها المادية ونشكك فى كل ما نسمع ولكننا نقبل بسهولة الزعم بتحريك الأشياء عن بعد وإخراج العفاريت من الأجساد دون أي نقاش جاد أو استعمال لعقل ناقد .

وتمثل استغلال قابلية العقل البشرى للخداع فى مؤامرة نصب مشهورة . فمن أشهر قصص الدجل والخداع قصة «دوائر المحاصيل» التى بدأت فى بريطانيا فى عام ١٩٧٠ واستشرت فى جميع أنحاء العالم حتى عام ١٩٩٠ ، كانت الظاهرة كالآتي :

فى المزارع الواسعة للقمح أو الشعير أو الشوفان ، يستيقظ الفلاحون فإذا بدائرة ضخمة قد تم رسمها بالضغط على عيدان النباتات . وبدأت الأشكال تتعقد فبدلا من دائرة ظهرت دوائر متعددة كان من بينها ظهور دائرة كبيرة حولها أربع دوائر صغيرة مما يوحي بشكل طبق طائر له أربع أرجل .

وقامت القيامة . وتساءل الناس هل فى الأمر خدعة ؟ مستحيل! من المؤكد أنهم رواد من الفضاء الخارجي ونشأت فرق للحراسة الليلية لمقابلة الزوار .

وقدمت أسئلة فى البرلمان واهتمت وزارة الدفاع وأبدت الأسرة المالكة البريطانية اهتماما بالموضوع ونشأت منظمات لدراسة علم الحبوب Cerealogy ووصلت الظاهرة إلى أمريكا وكندا واليابان والمجر وهولندا وبلجيكا . وبدأ الرياضيون يكتشفون معادلات رياضية معقدة فى هذه الدوائر .

وفى عام ١٩٩١ ظهرت الحقيقة . أعلن Doug Bower and Dave Chorley أنهما فكرا فى جلسة حول زجاجة من البيرة فى هذه العملية منذ عشرين عاما وأن الفكرة قلدها المئات فى كل مكان . وقص Bower and Chorley القصة الكاملة وكيف أنهما كانا يضعان إمضاءD&C فظن الناس أنها إشارة لنوع معين من زوار الفضاء . وعندما بلغ Bower and Chorley سن الستين وتعبا ، بدأ الوهن يدب فى عظامهما وشكت زوجاتهما من كثرة غيابهما مساء وأحسا بغضب لما أكتنزه بعض الكتاب من الكتابة عن هذه «الظاهرة» فاعترفا اعترافا كاملا سجله أحد الصحفيين فى كتاب صدر عام ١٩٩٤ Round in Circles, Penguin books .

وانتهت قصة «دوائر المحاصيل» .

ورغم الدجل الواضح فى قصص محضري الأرواح وقراء الطالع ، فمازال الملايين من الضحايا يصدقونهم . ولماذا لا يسأل هؤلاء الضحايا لماذا تبقى أي جريمة بدون حل فى ظل تحضير الأرواح ؟ لماذا يظل مكان قبر الاسكندر الأكبر مجهولا ؟ لماذا نتعب أنفسنا مع علماء الآثار بدلا من معرفة التاريخ الكامل للفراعنة عن طريق ما نحضره من أرواح ؟ لماذا نتعب أنفسنا ومعاهدنا فى الكد خلف الحقائق بينما الطريق ممهد عن طريق شمهورش وغيره ؟

فى تجربة واضحة فى باريس ، نشر أحد علماء النفس طلبا فى جريدة يعرض فيها قراءة الطالع مجانا للقراء ، بشرط أن يرسلوا له مكان و تاريخ الميلاد . وأرسل الباحث إلى كل من استجاب من القراء طالعا متطابقا ، مع سؤال حول دقة الطالع : وأجاب ٩٠٪ من المرسلين بأنهم يرون أنفسهم فى الطالع – مع أن الطالع الأصلي كان لقاتل فرنسى

مشهور ، فإذا كان ذا هو حال الطالع المرسل عن بعد ، فما بالك بمن يقرأ لك الطالع وأنت معه وهو يقرأ علامات وجهك ؟

إليكم هذا الطالع :

«أنت أحيانا منفتح على الناس ، وأحيانا أخرى منقبض ، قد أكتشفت أنه من الأمن حكمة أن تكون متحفظا فى علاقتك ببعض الناس وأنت تحب التغيير ولكن بحدود معينة ومع وجود بعض نقط الضعف فى شخصيتك ، فإنك تستطيع تعويض أغلبها . أن طاقتك لا تستغل بأكملها كما يجب ويجب عليك أن تستعملها فيما فيه مصلحتك» .

ألا نرى جميعا أنفسنا فى هذا الطالع ؟ وهل هناك عجب فى ذلك ألسنا جميعا بشر؟

ويعمل المنجمون بحكمة بالغة فحيثما يكون الحدث متوقعا فهم دقيقون وحينما لا يكون هناك ما يدل عليه فهم يحومون حول الأحداث بطريقة مبهمة حتى تفسر عند اللزوم بما تؤكد مقدرتهم وقد امتد المنجمون منذ الأزمنة القديمة من Nostradamus إلى عالم الرياضة الإسرائيلي الذى ظهر فى عام ١٩٩٧ فى التليفزيونات العالمية وزعم أنه استخرج اسم السادات ومقتل رابين واسم قاتله بمعادلات رياضة من التوراة . ولكن العالم الأخير كان أسوأ حظا من Nostradamus فقد انبرى له علماء رياضة آخرون استخرجوا مئات من الخرافات بنفس الطريقة .

يمتلك بعض النصابين فى الولايات المتحدة العديد من محطات التليفزيون متحمسين بالدين ومدعين المقدرة على العلاج الروحى ويحج عشرات الآلاف إلى مقر هؤلاء النصابين الذين جمعوا مئات الملايين من الدولارات حصلوا عليها بالدجل والنصب من هؤلاء الأبرياء ويقوم أغلبهم بإرسال مندوبين لهم وسط الجماهير الآتية للشفاء لجمع المعلومات ، ثم ترسل هذه المعلومات لآلات استقبال فى آذان الدجال ويفاجأ الضحية أمامه . ولعل من أعجب الظواهر عن تأثير هؤلاء الدجالين من مدعى الدين هو القبض عدة مرات على أحد أبرزهم ويدعى سواجارت Swaggart مع مومسات فى موتيلات . وعودته بعد فترة راحة قصيرة إلى نشاطه المعتاد مناديا الرب بطلب عفوه فهو بشر ويخطئ مثل باقي البشر .

ولكن ما الضرر من الدجل ؟

بجانب الجهد البشرى الضائع فإن الدجل يحمل فى مجتمعات معينة أخطارا جسيمة على المجتمع وعلينا أن نذكر فى هذا المجال ما حدث فى محاكم التفتيش فى أوروبا وفى سالم فى أمريكا .

هل تذكرون ما كتب فى أحد الجرائد القومية عن «أحليل إبليس»؟

لا أعلم كيف مر ما كتب عن الأبالسة ونسلهم دون أن يثير حوارا جادا مسئولا حول ما صرنا إليه .

لا أفهم كيف قرأنا هذا الكلام عن «أحليل إبليس» (وهى كلمة جميلة تستحضر من تراثنا لتضيف إلى ثروتنا اللغوية) الذى يضعه مع أحليل الزوج فى الزوجة دون أن نفكر وندرس فى معاهدنا العلمية الاكتشاف البيولوجي الخطير الذى يفوق فى أهميته كافة المكتشفات الحديثة فى ميادين الهندسة الوراثية ونقل الأعضاء .

لا أستطيع أن أعي كيف عميت أجهزة الإعلام والتعليم والثقافة عن هذا الخطر المحدق ، جبل الثلج الضخم ، من الخرافات والدجل ، الذى تظهر قمته فتدلنا على طبيعته ، ولا أظن أن العصر الذى نعيشه يسمح لنا بأن نتجاهل ما يحمله هذا الجبل من خطر على أمننا القومي بل وعلى وجودنا ووجود أبنائنا .

بعد أن قرأت المقال عدت إلى الأصول التاريخية لنسل العفاريت ووجدت الآتي :

كانت تنتشر فى أوروبا فى القرن الحادي عشر أفكار متعددة عن عالم العفاريت وعن أسرار حياتهم الجنسية . قيل مثلا أن بعض ذكورهم كانوا يجامعون النساء من البشر ، وقيل أيضا أن بعض إناثهن كن يجامعن الرجال من البشر ، وقيل أن هناك نوعا ثالثا كان يجامع الرجال فيأخذ منهم السائل المنوي ثم يجامع النساء فيضع هذا السائل فيهن . وقيل أن نسل الأوائل يكون من الأبالسة وأما نسل العملية الأخيرة فيكون من السحرة والساحرات .

وكان من يزعم مجامعته للنساء من هذه العفاريت يسمى Incubus (فى المورد «الحضون») وكان من نزعم مجامعته الرجال يدعى Succubus (فى المورد «السقوبة») . وقيل فى وصف هذه العمليات الجنسية الفريدة أنها السبب فى «الكابوس» .

وقد تصاعد فى أوروبا هذا الاهتمام بالحياة الجنسية للعفاريت ، وحتى أصدر البابا أنوسنت الثامن Innocent VIII الذى جلس على كرسي البابوية فى الفترة بين ١٤٨٤-١٤٩٢ ، بيانا بابويا قال فيه :

«لقد وصل إلى سمعنا أن الذكور والإناث من البشر لا يمتنعون عن إقامة علاقة جنسية مع الحضونات والسقوبات ، فإذا استمرت هذه الظاهرة فإن الكوارث ستحيق بالبشرية» .

وبهذه المقولة بدأت عملية مطاردة واتهام وتعذيب عدد لا يحصى من الساحرات Witch hunting فى جميع أنحاء أوروبا واتهم رجال الكنيسة من ينكر وجود الساحرات بأنه ينكر الكتاب المقدس بأكمله .

وكلف Innocent VIII «لجنة من أبنائنا Henry Kramer and James Springs » للبحث والتفتيش فى هذا الموضوع . وطلب منهم كتابة تقرير مفصل عن الظاهرة وعلاجها . فكتب السادة Kramer and Springs تقريرا بعنوان «مطرقة السحرة» وهى وثيقة وصفت بأنها «أفظع وثيقة فى تاريخ الجنس البشرى» .

تقول المطرقة :

أنه إذا اهتم إنسان بالسحر فهو قطعا ساحر . وأن التعذيب هو الطريقة الوحيدة الناجحة فى إثبات المهمة ، فمن سيعترف بدون تعذيب بممارسة السحر؟ وأن المتهم لا حقوق له ولا تعطى له فرصة مواجهة من اتهموه ، وأن الزعم بأن السبب الاتهام هو الإنتقام أو الغيرة أو الطمع لا يلتفت إليه ، وأنه يجب استعمال طرق خاصة لتخليص المتهمين من الأبالسة قبل إعدامهم .

ولم تتوقف عمليات الإعدام على الساحرات والساسة والعلماء بل امتدت إلى كل من يعترض على عمليات الإعدام . فالاعتراض على الإعدام يعنى الاعتراض على الكنيسة ، والاعتراض على الكنيسة يعنى تأييد العفاريت وهو كفر يستحق من يمارسه الإعدام .

وفى عام ١٤٩٥ مات Innocent بعد عدة محاولات لإنقاذ حياته بنقل دم تسبب فى وفاة ثلاثة أولاد وبإرضاعه من ثدي أم مرضعة واكتشف بعد وفاته أنه ترك عشيقة

وعدة أطفال . واستمرت محاكم التفتيش بعد Innocent ولم تتوقف على الساحرات ، فقد كانت الهرطقة جريمة أفظع ففى القرن السادس عشر حاول المفكر ورجل الدين الإنجليزي William Tindale ترجمة الإنجيل من اللاتينية إلى الإنجليزية وكان هذا سببا فى ثورة السلطات الكنائسية ، إذ أنه إذا تمكن رجل الشارع من قراءة الإنجيل وتفهمه فأنه سيصبح فى استطاعته إقامة علاقة مباشرة مع الرب فتفقد الكنيسة سلطانها عليه . وطورد Tindale فى جميع أنحاء أوروبا حتى قبض عليه وعذب واعترف ثم احرق .

وتكررت محاكم التفتيش فى كل أنحاء العالم وامتدت سنين وسنين . وكان من أفظعها ما حدث فى الفترة بين مارس وسبتمبر ١٦٩٣ فى مدينة سالم بالولايات المتحدة وإليكم تفاصيل القصة :

فى مدينة سالم Salem إحدى مدن ولاية ماساشوستس Massachusetts وقعت فى الفترة بين مارس وسبتمبر ١٦٩٣ أحداث سوداء تذكرنا ببعض ما نحن فيه الآن فى مصر . فقد ظهرت على فتاتين من أهل بيت القس صمويل هاريس Samyel Harris بعض الأعراض النفسية الغريبة . ادعت الفتاتان أن هذه الأعراض نتجت عن جلسات للسحر تتعامل مع الجن والشياطين وتداعت أسباب مالية واجتماعية وسياسية فبدأت عمليات تحقيق واسعة النطاق فى أول مارس وفى منتصف مايو كان فى السجون مائتا شخص وفى أول يونيو أدينت أول ضحية «السيدة بريجيت بيشوب Brigitte Bishop» وبتاريخ ٢٢ سبتمبر فى نفس العام كانت المحكمة المشكلة خصيصا لهذه العملية قد أدانت مائة شخص نفذ فى ٣٢ منهن حكم الإعدام شنقا ما عدا .Mrs. Giles Coory ، فقد نفذ فيها حكم الإعدام سحقا بين حجرين مع الأمر ببعثرة جسدها المفروم فى مناطق قاحلة . وخلال المحاكمة اعترف خمسون من المتهمين بالتهمة !!! وبعد أن هدأت الهستيريا الجماعية ، أعترف المحلفون بالخطأ وأعترف الشهود ومنهم أهم قسيس بالمدينة الصغيرة (Father Samuel Siswell) بالكذب فى الشهادة فى عام ١٧١٧ حكمت المحاكم لورثة المتهمين بتعويضات مناسبة .

* * *

ولكن كيف نميز بين العلم الحقيقي والعلم الزائف ؟ .

فلنفرض أن جارك ، وهو أستاذ علم الطبيعة فى كلية العلوم قال لك فى سهرة «أنى قد حبست عفريت فى معملي وسأجرى عليه بعض الدراسات» . فتسأله أن يريك إياه ، فيقول لك «آسف لا يستطيع أحد سواي أن يراه» . فتقترح عليه وضع أجهزة تقيس أي موجات كهرومغناطيسية أو لاسلكية أو حرارية تنتج عنه فيقول لك «ولكن ليست له مثل هذه الموجات» .

ماذا يكون شعورك نحو «علم» جارك ؟ هل ستقول لنفسك «ولم لا؟» يختلف فلاسفة العلم فى تحديد بعض تعاريفه ولكن أكثر التعاريف قبولا لدى الجانب الأكبر من هؤلاء الفلاسفة هو تعريف Karl Popper «العلم هو ما يقبل التكذيب» . وقد أغلق جارك الفيزيائي عليك أبواب التكذيب ولذلك فإن ما قاله يخرج من دائرة العلم .

العلم الحقيقي إذن هو ما يجتاز اختيار التكذيب . ولكن هناك عقبة أخرى فى تمييز العلم الحقيقي :

فلنفترض أنك أردت أن تتفهم نظرية الكم Quantum mechanics فما هو الطريق إلى ذلك ؟

إن على من يريد أن يفهم - مجرد أن يفهم - هذه النظرية ، أن يدرس المقررات الآتية : علم الحساب ، هندسة أقليدس ، الجبر ، التفاضل والتكامل ، المعادلات الحدية Vector calculus وهى دراسة تتطلب عملا جادا لمدة حوالي ١٥ عاما ولعل هذا هو السبب الأساسي فى فشل محاولات تبسيط علوم الفيزياء وتحبيبها للناس . ولنفترض أن هناك من عرض عليك الانضمام إلى جمعية «التأمل الروحي الشاروجى» وهى جمعية خيالية أنشأها الدكتور شاروج المتخصص فى «المجالات الحيوية والمغناطيسية الروحية الإشعاعية» . فإذا أبديت اهتماما وسألت عن تفسير ذلك فقيل لك أنك تحتاج إلى مراحل فى ١٥ سنة لتفهمنا فما الفرق بين نظرية الكم ونظرية «شاروج»؟ .

الفوارق عديدة واضحة : فلنظرية الكم نتائج تطبيقية يعرفها الجميع . منها التنبؤ بخطوط امتصاص العناصر المختلفة للضوء Atomic absorption وهو تكنيك يستعمل فى أصغر معامل التحاليل الطبية والزراعية ومنها خواص أشباه المواصلات وهو ما يستعمل فى أجهزة المعلومات ومنها أشعة الليزر التى تستعمل فى النظرية . كما وقد

نجحت أيضا معادلات ماكسويل ، التى لا يستطيع تفهمها إلا علماء الرياضة فى وضع أسس اختراع الرادار والتليفزيون . وهذا ينطبق أيضا على نظريات كبلر ونيوتن واينشتين التى أصبح المتمكنون منها بفضلها قادرين على إرسال صاروخ إلى كوكب المريخ . وهذا ينطبق أيضا على دراسات العوامل الوراثية التى اكتشفها كريك وواطسن والتى وضعت السكر بالأنسولين المصنوع بواسطتها الآن .

وهنا فروق أخرى : فبينما يهاجم أنصار شار وج المعارضين بضراوة «أنت جاى تتعلم ولا جاى تجادل» ، فأن العلم يطلب بالنقد والحوار ، فالعلم لا يعزل نفسه عن النقد الفلسفي ولا يدعي الانفراد بالحقيقة ، وهو يحتوى على وسائل تصحيح نفسه فى داخله . وتكفى زيارة لحضور مناقشة جدية لرسالة دكتوراه أو ماجستير حيث يقف الباحث موقف الدفاع أمام المهاجمين لشرح أفكاره لمعرفة مدى قابلية العلم للنقد والتعديل .

ونستطيع أحيانا بالمنطق البسيط الكشف عن العلم الزائف -: قال لى صديقى العالم أن هناك ظاهرة علمية تتعلق بتحريك الأشياء عن بعد (مضادة بذلك قواعد نيوتن عن الميكانيكا) وأن هذه الظاهرة مدرسة فى المعاهد . قلت لصديقى أن هذه المعاهد تضيع وقتها فيما لا طائل وراءه فبدلا من إضاعة الوقت فى الدراسة ، يمكن استعمال هذه الظاهرة فى أمكنة القمار بالروليت ، وبدفعة صغيرة لبلية الروليت تمكن كسب الملايين فى ليلة . فإذا كان الأمر كذلك فإن كازينوهات الروليت لابد أن تصنع جهاز لتغطية البلية لمنع هذه العملية ، وبما أنها لم تفعل ذلك ، فإن هذا يدل على كذب المدعين .

فى فيلم «أضواء المسرح لشارلى شابلين يقول لربيبته» أنني متأكد أن السيد X وزوجته اللذين يدعيان المقدرة على الاتصال عن بعد Telepathy كاذبان . «فسألته ربيبته» «كيف هذا؟» فقال لها «لقد رأيته يرسل لها برقية !!!» .

* * *

وللعلم الجيد خواص هامة :

ففى العلم نبدأ بالظواهر أو المشاهدات أو نتائج التجارب ، ونواجه كلا منها بالحقائق المعروفة ثم نحاول أن نعمل العقل فى تفسيرها . ولقد كان الخطأ الأساسي لأرسطو هو السير فى عكس هذا الطريق فقد حدد أرسطو عدد أسنان المرأة دون أن يفتح

فم إمرأه . فيما أن أهم الآلهة من الذكور ، فإن المرأة أقل من الرجل . وبما أن المرأة أقل من الرجل ، فلابد أن أسنانها أقل .

ووضع أرسطو نظرياته فى الفلك وهو جالس فى غرفته : فبما أن الأرض هى مقر الآلهة ، فلابد أنها هى مركز الكون . والدخان والنار مكانهما الطبيعي فى السماء ولذا يصعدان إلى السماء . والأحجار مكانها الطبيعي هو الأرض ولذا تعود إلى الأرض إذا قذفت من أعلى . وهكذا وضع أرسطو الفكر قبل المشاهدة فوصل إلى طريق خاطئ .

العلم إذن يبدأ بالظاهرة ، وهو يتمسك بأهمية صحة المشاهدة ، ثم يقدم تفسيرات لها . وهو فى مجال التفسيرات يشجع وجهات النظر المتباينة ولا يتبنى أيا منها لمجرد أنها تفسيرين لنفس المشاهد ، يطبق عليهما ما يطلق عليه اسم موسى اوكامOccam's razor «إذا تساوى تفسيران فى قيمتهما فإنه يؤخذ بالتفسير الأبسط» ولعل أهم شروط التفسير المقبول هو ألا يوجد إطلاقا ما يناقضه وثانيا أن تتوفر معه إمكانية التكذيب . فبدون توفر هذه الإمكانية يخرج هذا التفسير من دائرة العلم .

ويتميز العلم الصحيح بالقياس واستعمال الرياضيات الحقائق والعيوب التى قد لا تكون واضحة كيفيا يمكن أن تتضح كميا . وفى مجالات العلوم الإنسانية والبيولوجية يصبح لعلم الاستنتاج الإحصائي Statistical inference الذى يعتمد كثيرا على قوانين الاحتمالات laws of probability دورا أساسيا فى استخراج الحقائق .ويكفى أن نتذكر أن معلوماتنا عن أضرار التدخين قد قدمها لنا عالم إحصاء .

وتتطلب قراءة الإحصاءات والرياضيات عقلا ناقدا ذكيا . فلم يكن ايزنهاور ذكيا حينما فزع عندما اكتشف أن «ذكاء نصف الأمريكيين أقل من متوسط الذكاء فى أمريكا» ولابد أن تكون الأرقام مستمدة من أعداد كبيرة عشوائية ويتضح هذا من مقولة «يزعم بعض الناس أن كل خمسة أفراد من سكان الأرض أحدهم صيني وهذا خطأ واضح فأنا شخصيا أعرف مائة شخص ليس بينهم صيني واحد» .

كما ينبغي التمييز بين السببية والارتباط المباشر والارتباط غير المباشر . فلو درسنا عدد الحيتان فى المحيطات فى مائة عام الماضية لاكتشفنا أن لها علاقة عكسية بعدد أقراص منع الحمل المستعملة فمع ازدياد استعمال أقراص منع الحمل يقل عدد الحيتان

فى المحيطات . ولا يدل هذا طبعا كما قد يبدو للدارس الساذج على علاقة سببية بين عدد الحيتان واستهلاك أقراص منع الحمل .

* * *

تستحق مصر صاحبة الحضارة الرائعة ومنشئة مكتبة الإسكندرية وموطن الحضارة الفاطمية ، مصر التى أنشأ محمد علي دولتها الحديثة ، مصر الرائدة فى الأمة العربية تستحق مصر أكثر من ذلك .

تستحق ثقافة لا تنتج أمثال ستة من المجرمين الواقعين تحت سيطرة الدجالين والذين ارتكبوا جريمة الأقصر .

ومن هنا كان واجب كل مثقف مستنير محب لوطنه أن يقف مع العلم ضد اللاعلم .

أ . محمود أمين العالم*

الاحتكام إلى العقل

بين طه حسين ونصر حامد أبو زيد

الموضوع فى جوهره هو العقل ، أو العقلانية فى تناولنا لقضايانا المختلفة الخلافية وغير الخلافية فى تجلياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأدبية إلى غير ذلك . (هل يصبح العقل مرجعيتنا التى نحتكم إليها فى معالجة هذه القضايا للاستنارة على الأقل أن لم تصل إلى حل لها أم تصبح الإثارة العاطفية وخاصة باستغلال الدين استغلالا غير لائق به ، والإدانة بالتكفير والحرق والقتل هو سبيلنا لحسم هذه القضايا الخلافية) .

إننا نلتقى الليلة وقد أخذ يغلب الحوار العقلانى - إلى حد كبير - على جانب الإدانه والتكفير . وإن كنت أتمنى ألا يتم إيقاف صدور الجريدة ووقف نشاط الحزب الذى كان وراء هذه الإثارة اللاعقلانية ، برغم أن هذا الإيقاف والوقف لأسباب كما يقال قانونية تتعلق بالخلاف حول الشرعية الحزبية .

نعم كنت وما زلت أتمنى أن يتوصل الحوار المجتمعى العام تواصلا عقلانيا بغير هذا الإجراء حتى تتم بلورة المفاهيم والقيم المثارة . فبغير هذا ، ستظل الأفكار اللاعقلانية التكفيرية والجامدة أو حتى المغرضة متربعة فى قاع المدينة بل لعلها تلبس لباس الشهادة والتضحية ، فتزداد قوتها وفاعليتها رغم كبتها بل بفضل هذا الكبت نفسه ، وخاصة إذا تزينت بأزياء ذات مظهر دينى مهما كان بطلان هذه الأزياء وزيفها .

عذرا . . الزميلات والزملاء . . عن هذا المدخل الذى أخشى أن يكون قد طال ، على أنى أراه جزءاً حميما من موضوعنا ...... وإذا كان موضوعنا هو العقل ... فما هو هذا العقل الذى ندعو إلى الاحتكام إليه ... هل هناك من ينكر ضرورة الاحتكام إلى العقل ، سواء قام بالاحتكام البين أم لم يقم ولماذا لا نبدأ بالتساؤل إذن :

* الأستاذ محمود أمين العالم : ناقد ومفكر وشاعر ، قام بتدريس الفلسفة بجامعات القاهرة وباريس واكسفورد ، حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ، رأس مؤسسة المسرح والموسيقى والفنون الشعبية خلال الستينات .

هل هناك مفهوم محدود كلى متفق عليه للعقل إذا أردنا الاحتكام إليه؟

ألا يمكن أن يرد العديد من اختلافاتنا ، إلى الاختلاف فى مفهوم العقل نفسه . . وأن الأمر يحتاج إلى تحديد واضح لمفهوم العقل الذى نتبناه أو المفاهيم المتعددة التى نختلف بيننا عليها ؟

ما أريد بالطبع أن أحول لقاء الليلة إلى جلسة فلسفية شمولية حول مفاهيم العقل المختلفة فهناك مفاهيم عديدة للعقل عبر التاريخ الحضارى للإنسان التى تختلف باختلاف الملابسات الموضوعية الخاصة لكل مرحلة أو تجربة حضارية .وما أكثر وأعمق ما فى تراثنا العربى الإسلامى كذلك من مفاهيم ومواقف خلافية حول العقل والعقلانية . ولكن لا سبيل إلى الخوض فيها الآن ، وأتطلع أن يتاح لنا ذلك فى الحوار الذى أرحب به فى نهاية كلمتى هذه .

ولهذا حسبى أن أقول بأن ما أعنيه بالعقل أو بالعقلانية فى هذه الكلمة ليس العقل أو العقلانية فى حدود الممارسة الفردية وحدها فحسب ، وإنما فى إطار المجتمع كله ومن أجله ، أى مدى سيادة الرؤية والممارسة العقلانية فى المجتمع ومدى اتخاذها سندا وقاعدة ومنطلقا للمعرفة والعمل والسلوك . والمقصود عندى بالرؤية العقلانية هو مدى الترابط السببى أو العلمى ، الموضوعى القائم بالفعل وليس المتخيل أو المفروض ، بين الأشياء والظواهر والأحداث والأفعال والتفسيرات والتقييمات والمشروعات المجتمعية المختلفة ، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية إلى غير ذلك . فمن رفع الأسباب أى استبعدها على حد تعبير ابن رشد فقد رفع العقل .

على أن المقصود بالممارسة العقلانية ليس مجرد السعي لتحصيل معرفة الترابطات السببية فى الخبرة ، الإنسانية المجتمعية ، الحية ، الطبيعية والاجتماعية الذاتية ، وهى ليست معرفة بجزئيات أو بالتضاريس الحسية الخارجية وإنما هي معرفة بالعلاقات أو الترابطات الكلية والضرورية التى تربط بين حقائق و وقائع هذه الخبرة على تنوعها ، تفسيرا وتقييما لها . على إنها كذلك فى تقديرى لا تقف عند حدود المعرفة النظرية التفسيرية أياً كانت قيمتها ، وإنما هي معرفة فاعلة لو صح التعبير تتفيأ توظيف معرفتها هذه من أجل التغيير والتجديد والتجاوز المستمر لوقائع الخبرة المجتمعية الحسية إلى ما

هو أفضل وأعدل وأجمل وأكثر حرية وإبداعا لمصلحة المجتمع عامة .

ولهذا فالعقلانية فى جوهرها رؤية وممارسة مستقبلية أى تاريخية ولهذا فالرؤية والممارسة العقلانية ليست عملية ثابتة جامدة نهائية بل عملية مجددة لذاتها ، وللوقائع من حولها ، وليست متعالية أو مفارقة إزاء التجربة المجتمعية أو الإنسانية عامة ، وهذا ما يحمى العقلانية من الأحكام المطلقة القاطعة ، ويسميها بروح النقد والمراجعة والتجدد والاختبار المتصل لأحكامها . و كذلك تكاد العقلانية أن تكون مرادفة للعلم ، وإن لم تتسم بالدقة المنهجية والتجريبية التى للعلم ، أن تكون لها طبيعته الموضوعية الشاملة . فبرغم ما تتسم به العقلانية من خصوصية خبرتها وقضاياها المجتمعية ، إلا إنها ذات مفهوم إنساني مشترك عام . أو على حد التعبير المشهور لديكارت هي أشد الأشياء عدالة فى قسمتها بين الناس أو بتعبير آخر الحكم العدل بين قضاياهم ومنازعتهم التى تثار نتيجة لاختلاف المفاهيم والمصالح . ولهذا كانت العقلانية على تنوع دلالاتها التاريخية ، هى جوهر قيام الحضارات وكان إخفاقها هو دليل على انهيارها . ولكن ما أكثر ما فقدت العقلانية دلالاتها الموضوعية الإنسانية الشاملة هذه واستخدمت كأداة أو تقنية إجرائية لخدمة المصالح الخاصة الضيقة على حساب المصالح المجتمعية أو الإنسانية العامة .

ولهذا نجد فى عصرنا الراهن أزمة فى مفهوم العقل والعقلانية بل هناك من يحملون العقل والعقلانية للأسف مسئولية الجرائم البشعة التى ترتكب فى عصرنا الراهن والتى تستخدم العقلانية وتوظفها توظيفا إجرائيا استغلاليا خالصا مناقضا لحقيقتها .

على أن هذا لا يقلل من قيمة العقلانية أو العلم مع ما تقوم به الدول الرأسمالية الكبرى وخاصة فى مرحلة العولمة الراهنة من توظيف العلم والتكنولوجيا كذلك لخدمة مشروعاتها التوسعية والربحية الخاصة للهيمنة على شعوب العالم برغم ما ينجم عن هذا من أخطار طبيعية وبيئية وصحية ولهذا تدور فى عصرنا كذلك معركة عقلانية ، علمية دفاعا عن العقلانية والعلم والتكنولوجيا ضد هذا الاستقلال الشرير لهذه المنجزات الإنسانية الرفيعة .

وفى تجربتنا المصرية العربية الحديثة ، بدأت الإرهاصات الأولى للتوجه العقلاني

خروجا من ظلامية وغيبوبة الهيمنة العثمانية فى القرن الثامن عشر ، أي قبل مجيء الحملة الفرنسية على مصر فى تقديري وقد أخذ يتنامى هذا التوجه منذ ذلك الحين مُشكلا قوى قاومت القومية والثقافية فى مواجهة قوى الحداثة الوافدة المفروضة من ناحية ، والاتجاهات السلفية الجامدة من ناحية أخرى . . ومحاولة لتشكيل مركب ثنائى بين هذه الحداثة الوافدة وأفضل ما فى تراثنا القديم من قيم حضارية إيجابية متقدمة وخاصة فى توجيهها العقلانى ، ولعل حسن العطار ورفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمد عبده ولطفى السيد أن يكونوا من أبرز ممثلى هذا التوجه العقلانى فى مجال الفكر خاصة ، وكانوا الأساتذة المباشرين لطه حسين وبخاصة محمد عبده ولطفى السيد ، ولهذا لعل طه حسين أن يكون فى تقديرى أرقى ما وصلت إليه مرحلة عصر النهضة من رؤية عقلانية تتسم بعمق معرفى تراثي وتنفتح حداثتى ، والتسلح بمنهجية تفسيرية نقدية تاريخية ، وبمسعى دائب للخروج من حدود الفكر النظرى الخالص إلى عقل الفعل التغييرى التجديدى ولهذا فإن دلالة طه حسين فى فكرنا العربى الحديث هو أنه مفكر عقلانى عملى وليس مفكرا نظريا تجريديا . يحكى لنا فى الجزء الثانى «من الأيام» أنه قد سمع جملة وقعت فى أذنه وهو فى أول النوم وأخر اليقظة - وهو شاب صغير ، قد سمع من يقول معرفا الحق بأن الحق : هو هدم الهدم . وتكاد هذه الجملة الغريبة فى سنوات حياته الأولى ، أن تكون خلاصة حياته كلها فى مقتبل أيامه . لقد أصبح العلم فى حياته عملا ، وأصبح التفكير توجيها وأصبح العقل فعلا تنويريا تغييرا ، كما سبق أن أشرت فى دراسة سابقة ونستطيع أن نتابع ذلك فى بعض أعماله ومنجزاته الأدبية والفكرية على السواء فى مسيرته الدراسية والإبداعية .

منذ البداية العلمية الأولى لهذا الشاب الصغير فى الأزهر الشريف اتخذ قرارا حاسما بأن ينتقل من الأزهر إلى الجامعة المصرية عند افتتاحها وكانت نقلة أولى خارجية ولكنها ذات دلالة على حركته الفكرية الباطنية ثم تلاحظ فى رسالته الأولى التى حصل بها على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية عام ١٩١٤ عن أبى العلاء المعرى انتقالا جذريا من الرؤية الدينية الأصولية السلفية التى كانت تغلب على الدراسات الأزهرية آنذاك إلى رؤية عقلية تاريخية صادقه جبرية ، تفسر كل شئ بالعلل والأسباب الموضوعية أى الأسباب الواقعية المتخففة والفاعلة معا ، والتى يستطيع الإنسان أن يمتلكها معرفيا

وأن يحيلها إلى فعل متحقق حقا لقد تأثر فى هذا بمفكرى عصر التنوير الأوروبى فى القرن الثامن عشر ولكن المهم هو اختياره وتبنيه وتطبيقه لهذا المنهج . الصارم الذى راح يدرس به شعر وفكر أبى العلاء المعرى فى إرتباطه بشروط واقعه الاجتماعى الخاص .

حقا كان استخدامه للمنهج العقلانى آن ذاك استخداما صارما جبريا يكاد يكون رد فعل معاكس للمفهوم القدرى الدينى فى بعض الدراسات الأزهرية إلا أن منهجه آن ذاك رغم صراحته العقلية لم يكن بعزل الظاهرة الأدبية عزلا كاملا عن سياقها الاجتماعى التاريخى ، أو تفسيرها بالعلة الواحدة وإنما بتعدد العلل والشروط الموضوعية التى تتحقق بمقتضاها .

وينتقل إلى دراسته الثانية لنيل درجة الدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية فى جامعة السوربون بفرنسا . فتكون دراسته الثانية هذه إمتداد لمنهجه العقلى ، وإن أخذ يسلحه ويعمقه بالتخصص فى دراسة التاريخ ، اليونانى والرومانى خاصة ويواصل طه حسين دراسته مطورا منهجه العقلانى النقدى التاريخى حتى كان عام ١٩٢٦ عندما أصدر كتابه التفجيرى «فى الشعر الجاهلى» وهو كما ذكرت فى دراسة سابقة ، ليس كتابا فى تاريخ الأدب بقدر ما هو مقال فى المنهج يوضح استخدام عنوان كتاب ديكارت المشهور دون أن يعنى هذا تطابقا بين الكتابين رغم استفادة طه حسين من الشك المنهجى عند ديكارت منهجيا دون أن يكون له نفس الدلالة الفلسفية للشك المنهجى عند ديكارت .

فى هذا الكتاب الذى يدرس فيه ظاهرة الانتحال فى الشعر ويفسرها تفسيرا لا يقف به عند الأسباب الخارجية السياسية والشعوبية والعصبية القبلية والدينية وإنما نتكشف كذلك هذه الظاهرة داخل البنية اللغوية للنص الشعرى نفسه وهو فى قراءته يسعى لتفسير الظاهرة تفسيرا موضوعيا مستندا إلى الوثائق التاريخية العينية المحددة . ولهذا نراه فى دراسته هذه يفكر بحسم فى قصة إبراهيم وإسماعيل كحقيقة تاريخية موضوعية رغم ورودها فى القرآن ، وإن لم ينكرها كحقيقة سياسية وأيديولوجية ذات فاعلية تاريخية ينتهى طه حسين من دراسته الموضوعية العينية إلى أن قضية «العاربة والمستعربة» وتعلم إسماعيل العربية على حد تعبيره حديث أساطير لا خطر له ولا غناء ويقول بصراحة وبساطة وحسم «أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية

العرب من غير أهل الكتاب بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين ديانة «النصارى واليهود» قد اقتضى أن تثبت الصلة أما الصلة فثابتة وواضحة بين القرآن والتوراة والإنجيل اشتراك فى الموضوع والصور والغرض ، كلها ترمى إلى التوحيد وتعتمد على أساس واحد هو هذا الذى تشترك فيه الديانات السماوية والسامية ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب أهل الكتاب فما الذى يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرآن المادية بين العرب العدنانية و اليهود بل يقول بشكل أكثر حدة من الناحية العلمية للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنها أيضا ،لكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجدوهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل من إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها .

والواقع أن طه حسين فى جرأته العقلية هذه فى قراءة النص القرآنى ،لم يكن بعيداً عن النهج الذى استنه من جيل أستاذه الشيخ محمد عبده فى تأويله للقصص القرآنى إذ كان يرى أنه ليس من الضرورى أن يكون هناك تطابق بين هذه القصص والتاريخ الموضوعى . ذلك أن ، المقصود بها هو الهداية وطه حسين فى نفيه – دون الدخول فى صحة أو خطأ هذا النفى ـ لحقيقة قصة إبراهيم وإسماعيل ، كان نفيا للتحقق الموضوعى ، ولكنه كان تأكيدا للوجود التاريخى كفاعلية أيديولوجية لهذه القصة فهذه القصة كقصص متداولة ، تحققت أيديولوجيا وأن لم تتحقق موضوعيا ولكن كانت سائدة فى التراث الثقافى الجاهلى قبيل ظهور الإسلام وكانت قريش تؤكدها وتستفيد منها وتدعم بها سلطانها على البلاد العربية ويقاوم بها الروم والفرس والحبشة وདياناتهم فى البلاد العربية فلماذا لا يستفيد منها الدين الجديد كذلك فى دعوته التوحيدية وخاصة أن النص الدينى لا يقصد المعرفة العلمية أساسا بقدر ما يقصد الهداية والتوحيد الروحى والقومى على حد القاعدة التى وضعها الشيخ محمد عبده . أن نفى طه حسين للموضوعية التاريخية لهذه القصة وتأكيده لها فى الوقت نفسه هو تأكيد لواقع غير موضوعى ولكنه واقع فاعل ومؤثر . وهكذا فى تقديرى ترتفع دلالة الظاهرة التاريخية عند طه حسين من حدود تحققها العينى المحض إلى أفاق فاعليتها الأيديولوجية المعنوية فى الواقع التاريخى الموضوعى . وإنما واقع أيديولوجى فاعل وإن لم يكن واقعا موضوعيا

متحققا ولعل هذا يثير فى الذهن مفهوم الحقائق الافتراضية فى الفكر العلمى المعاصر virtual realties الموجودة وتأثيرا أو متخيلا وإن لم تكن موجودة موضوعيا عينيا حقا ، لقد كفر طه حسين ، وصودر الكتاب واضطر طه حسين أن يصدر الكتاب تحت مسمى أخر مستبعدا هذه القضية الإشكالية مضيفا فصولا أخرى للكتاب ولكن والقضية لم تصادر فى تاريخ الاجتهاد العقلانى المصرى العربى تحليلا ودرسا ويظل الكتاب «فى الشعر الجاهلى» نموذجاً لجسارة التأويل العقلانى وإن تعرض لموضوع بالغ الحساسية هو النص الدينى ما دام الهدف هو تحرى الحقيقة العقلانية التاريخية .

ولا تقل قيمة هذا الكتاب التفجيرى عن كتابين أخرين لطه حسين يغلب عليهما كذلك الطابع التاريخى الخاص وإن تميزا كذلك بمستوى رفيع من جسارة التحليل والتفسير العقلانيين هما «الفتنة الكبرى» «وعلّي وبنوه» بالإضافة إلى أنهما يتضمنان رغم خصوصية موضوعهما التاريخى -الاجتماعى القديم فإنهما يعكسان بشكل إيحائى الواقع المصرى فى أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات وينميان حسا نقديا عقلانيا تاريخيا فى قراءة الواقع ويؤكدان قيم الحق والعدل والحرية وضرورة الدفاع عنهما إلى حد الإستشهاد .

ونستطيع أن نتبين هذه المنهجية العقلانية التاريخية ذات التوجه العلمى فى أغلب كتاباته الفكرية فحسب بل وفى دراساته الأدبية الخالصة نجدها فى كتابه الأساسى «فى الثقافة المصرية» الذى لا يعد كتابا تاريخيا من حيث قيمته الذاتية فى تاريخ الثقافة العربية فحسب ، وإنما كذلك من حيث رؤيته المستقبلية التى لم تقف عند حد تشخيص وضع قائم ، وإنما تجاوزت هذا التشخيص إلى التخطيط العقلانى المستقبلى وسرعان ما أتيح لطه حسين أن يكون منفذا ومحققاً عمليا لرؤيته فى هذا الكتاب عندما أصبح وزيرا للتربية والتعليم .

وفى مرحلة الأربعينات حين إحتدمت المعارك الوطنية والاجتماعية والديمقراطية فى مواجهة الاحتلال البريطانى والتسلط والفساد الملكى وتفاقمت الأزمة الاقتصادية ونشطت التحركات الشعبية التى تمثلت طليعتها فى لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ تكاد كتابات طه حسين طوال هذه المرحلة من الأربعينات وبداية الخمسينات أن تكون مشاركة فكرية تحريضية فى قلبها نذكر دراسته «ثورتان» عن ثورة سبرتاكوس وثورة الزنج

فى العراق ونذكر «المعذبون فى الأرض» وشجرة البؤس ، وجنة الحيوان وأحلام شهر زاد ، والوعد الحق ، وفى مرآة الضمير هذا الكتاب الذى يهديه إلى «الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل وإلى الذين يجدون ما لا ينفقون وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون» . وفى جنة الشوق اسمحوا لى أن اكتفى بهذا الحوار الصغير الملهم برغم رمزيته الشديدة بين الطالب الغنى وأستاذه الشيخ ، لأختتم به حديثى السريع عن العقلانية التاريخية الفاعلة لطه حسين قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فسرلى قول القائل «فاض الإناء» قال الشيخ لتلميذه الفتى هذا مجاز يا بنى فى كل أمر يتجاوز حده حتى أصبح لا يخاف لا يطاق ؛ ألم تسمع ؛ قول الشاعر :

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة

ولكن تفيض النفس عند امتلائها .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإنى أعرفه أوعية لا تمتلئ وآنية لا تفيض «قال الأستاذ مبتسما» :

وما ذاك ! قال الطالب الفتى «خزائن الأغنياء التى مهما يصب فيها من المال فهى ناقصة وجهنم التى يقال لها : هل امتلأت فنقول : هل من مزيد ، وعقول العلماء التى لا تبلغ حظا من المعرفة ألا طمعت فى أكبر منه قال الأستاذ الشيخ ضاحكا : لقد أصبحت حكيما فمنذ اليوم ولكن تعلم إن أناءً واحداً قد يفيض فيصبح مضربا للأمثال ، ومصدرا للعبر وبعيد الأثر فى حياة الاجيال ألا تذكر سيل العرم ؟!» والإشارة رغم رمزيتها واضحة عن أى سيل كان يقصد هذا المفكر العقلانى العظيم ذو الرؤية العقلانية التاريخية السياسية المستقبلية الرفيعة . هذه لمحة سريعة لفكره ننتقل منها إلى تلميذه فى هذه الرؤية العقلانية نصر حامد أبو زيد وأنتهز هذه المناسبة وأحيي غربته الشريفة عن بلده هو وزوجته الفاضلة هذه الغيبة التى لا يعيشها فراغا وإنما عملا وبحثا وإضافات علمية جليلة متنقلا بين أرقى الجامعات الأوروبية وغير الأوروبية وتحرم منه بلاده من فيض علمه .

وفي تقديرى أن فكر الاجتهادات العقلانية فى مجال قراءة النص الدينى التى هى الاختصاص الأول لنصر حامد أبو زيد هى امتداد أمين ومتطور على نفس المنهج

لاجتهادات محمد عبده وطه حسين وغيرهما من المجتهدين مثل الشيخ أمين الخولى وخلف الله ، وبعض كتابات خالد محمد خالد . فضلا عن أنه إمتداد للاجتهادات الأصولية المبدعة فى تراثنا القديم ، منذ الاجتهادات المعتزلية حتى أن ابن رشد اجتهاداته هى امتداد متجدد لهذا التراث العقلانى العظيم فى إطار عصرنا الراهن . واجتهادات نصر حامد تنطلق من دراساته الألسنية ، للنص الدينى فى علاقته بالواقع الاجتماعى والسلطة أساسا .

ونقطة البداية فى قراءة نصر حامد أبو زيد للنص الدينى هى تفرقته بين الدين والفكر الدينى . فالدين كما يؤكد هو مجموعة من النصوص المقدسة الثابتة تاريخيا ، فى حين أن الفكر الدينى هو إجتهادات بشرية لفهم هذه النصوص ، واستخراج دلالتها . ولهذا تختلف وتتنوع هذه الاجتهادات بحسب مستوى المعرفة ومدى الرؤية الموضوعية للواقع الاجتماعى الذى يختلف من مرحلة إلى أخرى ، فضلا عن مدى علمية القدرة المنهجية التحليلية والإرتفاع عن عدم استخدام التحليل لأغراض مذهبية أو حزبية .

ولهذا يستند أبو زيد فى تحليله للنص الدينى إلى أسس منهجية علمية حديثة فى استنتاج دلالة النصوص مثل الألسنية والهرميتوطيقا أى التأويل وعلم الاجتماع إلى غير ذلك وهو يحرص على استنتاج دلالة النصوص من داخلها دون أن يفرض عليها رؤى أيديولوجية من خارجها ، وهو يدرك فى الوقت نفسه أن الفكر البشرى عامة ، بما فى ذلك الفكر الدينى وليس النص الدينى الأصلى ، هو نتاج طبيعى للظروف الاجتماعية التاريخية فى عصره على أن النصوص الدينية نفسها هى نصوص لغوية فهى بالضرورة تنتمى إلى بنية ثقافية محددة تم إنتاجها طبقا لقوانين هذه البنية الثقافية ، على أن قول أبو زيد بانتماء النصوص الدينية إلى بنية ثقافية محددة لا يعنى عنده كما أتُهم وكفر أفكار مصدرها الإلهى المقدس فضلا عن أن كون الخطاب إلهيا من حيث المصدر ، كما يقول أبو زيد لا يعنى عدم قابليته للتحليل بما هو خطاب إلهى تجسد فى اللغة الإنسانية بكل ما ترتبط به من سياق اجتماعى - ثقافى - تاريخى . ولهذا يلاحظ أبو زيد تدرج الخطاب الدينى للثقافة والأوضاع السائدة عند نزوله ولهذا هناك قضية علمية كبيرة هى قضية (أسباب النزول) التى تؤكد هذا المعنى أن ألوهية وقدسية النص لا تتناقض مع أن النص منتج ثقافى تعبيرا - كما يقول - عن جدل النص مع الواقع لأن يصدر بلغته .

على أن هذا لا يعنى ـ وهذه هى الإضافة الحقيقية ـ لاجتهاد أبو زيد العقلانى تثبيت المعنى الدينى عند مرحلة تشكيل ونزول النص . ذلك أن اللغة وهى مرجع التفسير والتأويل ليست ساكنة بل تتحرك وتتطور مع الثقافة والواقع ولهذا فللنص أكثر من مستوى : وهناك المستوى الأول وهو المعنى المباشر الذى يعبر عن اللحظة التاريخية التى صدر فيها وتجادل معها . وهذا هو المعنى المباشر غير قابل للتأويل عند أبو زيد . ولكن هناك مستوى آخر هو قابلية النص على التأويل المجازى ومستوى الدلالات على أساس المغزى وليس مجرد المعنى المباشر أو حتى المعنى المجازى . هذا المغزى هو الذى نجتهد فى اكتشافه من السياق الثقافى الاجتماعى التاريخى الذى تتحرك فيه النصوص والذى من خلاله تعيد النصوص إنتاج دلالتها وتجديد هذه الدلالة . إن للدلالات فى النصوص قابلية للتغير بتغير السياقات الثقافية والاجتماعية وهذا ما يجعل للنص الثابت قابلية التحرك الدلالى مع تغير المكان والزمان والأحوال . فالنص إذن ثابت فى منطوقه متحرك فى دلالته ومغزاه .وهنا يضرب أبو زيد أمثلة عديدة لكلمات ومفاهيم فى النص القرآنى فغيرت دلالتها بتغير سياقاتها التاريخية والاجتماعية ،مثل كلمة الحسد والسحر والجزية ، وملك اليمين والعبودية والربا إلى غير ذلك . ولهذا يؤكد أبو زيد خطورة تثبيت معانى النص وعدم الارتفاع به إلى دلالة أكبر وأكثر اتساعا إذا كان فى بنية النص نفسه ما يتيح ذلك دون أن يفرض على النص دلالة من خارجه على أن الأمر لا يقف عند أبو زيد عند الكلمات والمفاهيم بل يمتد إلى الأحكام كذلك . هناك مثالان تقليديان معروفان من أيام عمر بن الخطاب هو المُؤَلفة قلوبهم وقطع اليد ، كانت هناك من الدواعى الموضوعية لوقف العمل بهما . كذلك الأمر بالنسبة لملك اليمين .

ويقدم أبو زيد مثالا بأحكام القرآن فيما يتعلق بالمرأة وهو مثال فى حاجة إلى أن يتحرك الحكم فيه فبحسب تمييز أبو زيد بين المعنى التاريخى المحدد ، وبين المغزى المتحرك المتجدد يرى أنه من الممكن الاجتهاد بشأنها وشأن ما يماثلها بتغيير الأوضاع والأحوال .

فإذا كان النص الدينى قد حدد حكما يتفق مع أوضاع لحظة نزوله فإن أوضاعا وأحوالا جديدة قد تحدث تفرض إعادة النظر فى إطار مغزى الحكم لامعناه المباشر المرتبط بزمنه الأول . ولكن أبو زيد لا يقف عند حدود الكلمات والمفاهيم والأحكام

فحسب بل يمتد كذلك بإجتهاده إلى نقد الممارسات الفكرية والإجتماعية والسياسية التى تستند إلى التثبيت والتجميد الحرفى لمعنى النصوص سواء فى الفكر الدينى القديم أو الفكر الدينى الحديث ويكشف عما وراء ذلك من عوامل دنيوية ومصلحية نفعية أو قصور عن قراءة النص الدينى فى مغزاه العميق الذى يرتفع عن حدود معناه المباشر كما ينتقد ممارسات فكرية واجتماعية وسياسية كذلك لا تثبيت النصوص وتجميدها فحسب وإنما تقف منها موقفا توفيقيا لخدمة أغراض ذاتية كذلك .

وهكذا فإن نصر حامد أبو زيد مفكر عقلانى فى التأويل ، لا يقف عند حدود النص اللغوى فى منطوقه المطلق ، وإنما يسعى لكشف دلالة أعمق فى ارتباطه بحركة الواقع والتاريخ إنه يجدد قراءة النص لا تجديدا لغويا مجردا وإنما هو تجديد نابع من النص نفسه ولكن فى ارتباطه بحركة الحياة وتغير وتجدد الأحوال والأوضاع والأزمنة أن تجديده لقراءة النص الدينى هو تجديدا لقراءة نص الواقع الإنسانى فى إطار المغزى العميق للنص نفسه إذا كان فى النص ما يسمح بذلك .

هذا هو المعنى الحقيقى العقلانى التاريخى الذى يتبناه نصر حامد أبو زيد ، إمتدادا إبداعيا لاجتهادات تراثية قديمة ، واجتهادات حديثة تتمثل فى كتابات محمد عبده وطه حسين بوجه خاص .

* * *

الزميلات والزملاء . . من الطبيعى بل من العقلانية أن نختلف ونتفق مع هذه الاجتهادات التى تحتكم إلى العقل ، فهى اجتهادات صادرة عن إخلاص للحقيقة وتطلع شجاع إلى تجديد الفكر وتعميق المعرفة وتطوير الحياة .

ولكن يبقى الحوار العقلانى الموضوعى هو اللغة التى ينبغى أن تسود هذا الحوار ، لامتحان الأفكار وفرزها رفضا لها ، أو تعديلا أو إضافة إليها .

أما مواجهة التفكير بالتكفير ، والاجتهاد بالنفى والاستبعاد ، والإبداع بالاغتيال .

فهو تجميد للفكر والحياة نفسها ، وتكريس للتخلف والتبعية ، وهو إغتيال فى الحقيقة لا لأفراد أو لأفكار و اجتهاد ، وإنما هو إغتيال لإنسانية الإنسان وإغتيال لمستقبل حضارة الإنسان وهو فى واقعنا الثقافى المصرى العربى محاولة لتكريس تخلفنا

وتبعيتنا وإغتيال طاقات التحرر والتقدم والتجدد والإبداع فى حياتنا عامة لا فى ثقافتنا وحدها بل محاولة خروجنا من التاريخ هذا التاريخ الذى يتشكل اليوم تشكيلا جديدا لا ينبغى أن نتخلف عنه أو أن نتخلى عن أسلحته الحقيقية وفى مقدمتها التنمية الشاملة التى تقوم على العلم والعقلانية وحرية التعبير والتفكير والإبداع والرؤية التاريخية التى تستشرف المستقبل بموضوعية وثقة .

حامد عمار*

بين العودة للكتاتيب والانطلاق نحو التعليم العصرى

الدعوى لإحياء الكُتَّاب

لم يكن بدء عنوان هذه المحاضرة بمؤسسة الكُتَّاب امتداد إلى منظومة التعليم الحالى مجرد صدفة ، أو هكذا أريد لها ألا تكون صدفة أو واقعة أملاها منطق التسلسل التاريخى الذى بدأ بالكتاتيب حتى تطور إلى المدرسة والمعهد والجامعة . ومرد الأهمية لهذه البداية تلك الدعوى التى انطلقت أخيرا ومفادها أن علينا إحياء مؤسسة الكُتَّاب لما يصاب به نظام تعليمنا الحديث من قصور وتشوه فى نظر أصحاب تلك الدعوة . فالمدارس الابتدائية لا تحسن تعليم القراءة والكتابة ، ولاتعنى العناية الكافية بتحفيظ القرآن والتعليم الديني ، كما أشاعت مع غيرها من مراحل التعليم الخلل فى اللسان العربى ، نطقا وكتابة .

ويتواصل الحديث ترويجا بأن إحياء الكُتَّاب هو المنقذ من هذه الضلالات . ولم لا يكون ذلك وهو الشمعة المضيئة فى نفق التعليم المظلم الذى يراد به أن يقضى على هويتنا الأصلية وخصوصيتنا الخالدة . والأعجب من ذلك أن بعض أساتذة التربية فى جامعاتنا قد ناصروا تلك الدعوة ، وأضافوا إليها تحسين الأوضاع التقليدية للكُتَّاب القديم ، وانتهت الأوهام بأحدهم إلى إمكانية إدخال الكمبيوتر فى الكُتَّاب المطور . هذا فضلا عما يساق تعزيزا لهذا الأحياء من إيراد أسماء لأعلام الفكر الذين كان للكُتَّاب فضل فيما تميزوا به فى المراحل اللاحقة من تعليمهم الحديث وفى حياتهم بصورة عامة ، بدأ من طه حسين وأحمد أمين والعقاد إنتهاء بأحمد زويل وغيرهم ممن اشتغلوا بميادين العلوم ، والفلسفة ومن الواضح الذى لا يحتاج إلى تدليل أن هذه دعوة فجة وساذجة لا تاريخية ولا اجتماعية فى سياقها ودلالتها الحالية .

---

* أستاذ متفرغ بكلية التربية ـ جامعة عين شمس . حاصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٤ . المستشار الإقليمى للأمم المتحدة فى التنمية البشرية (سابقا) . حاصل على جائزة الكويت للتقدم العلمى ١٩٩٥ .

وتقودني هذه المقدمة إلى قضيتين أساسيتين أولهما أن نظام التعليم ومؤسساته هى ساحة هامة من الساحات التى تموج بها المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وما تضطرب به من صراع وتنافس وتباين فى الرؤى والفكر . وثانيهما أن التاريخ لايعيد نفسه أبدا وإن كان لا تموت آثاره إلا بصعوبة . والدعوة إلى الكُتّاب إنما هى مؤشر إلى ذلك التوجه السياسي والثقافى لرؤية فريق وإن بدا له أنه يسير إلى الأمام ، إلا أن مسيرته لا تكف عن النظر وعيناه إلى الخلف . وهو فريق ذو رؤية أيديولوجية لها تجلياتها وطموحاتها فى صراع القوى السياسية فى واقعنا المعاصر . ولعلنا نذكر معارضة كرومر فى فترة الاحتلال البريطانى لإنشاء الجامعة الأهلية بدعوى أن الحاجة والأولوية تقتضى التوسع فى إنشاء الكتاتيب . وسوف يتضح ما يقع فى معترك التعليم من القوى السياسية والاجتماعية فى استعراضنا لتطور فرص التعليم حتى اليوم .

كذلك فى دراستنا لتطور التعليم نشهد عمليات التغير والتحول المستمر فى أوضاعه وتشابكاته مع الأنساق المدفعية الأخرى . والمستقر فى الفكر الاجتماعى أن كل شئ يتغير وأنه قابل للتغيير وهو قانون من قوانين الحياة ، مع العلم بأن الشئ الذى لا يتغير هو القانون التغير ذاته ، ومن ثم فإن مقولة ما أشبه الليلة كالبارحة تغيير مجازى لا يصور الواقع فى حركته إلا فى إدراك عام مسطح مرتبط أحيانا ببعض الرواسب الماضية . ثم إن المقولة بأن التغيير أحياناً إنما يمثل صب الزيت القديم فى قنانى جديد ، إنما هو نوع آخر من المجاز الساكن يتجاهل حركة الصب ونوع القنانى فى تشخيص حركة الواقع وعملياته .

وفى هذا الصدد نرى أن دراسة التطور التاريخى ينبغى أن يتجاوز المفاهيم الخطية إلى نظريات التعقد واللاخطية والمنظومية الدينامية . أكثر من هذا عليها أن تأخذ فى الحسبان ما تطرحه نظرية الفوضى (الشواش) من استمرار التغير (وعدم تكرار النتائج فى الزمكان) فضلا عن قبول أسباب تافهة بالصدفة أو عارضة كأسباب وعوامل حقيقته ومباشرة لتغيرات كبيرة . واعتبار الاختلافات فى بدايات حركة التغير (حيث أن كل لحظة هى نتائج لتاريخ سابق عليها ، وأيضاً بداية لمستقبل تلعب دوراً هاماً فى تحديده) ومن ثم فإن أى تغيير طفيف وغير محسوس فى بداية حركة ما سوف ينجم عنه بالضرورة

تغير ما فى سلوك الحركة التالية(*) . وذلك جهد بحثى عصى يقتضى بذله لمزيد من فهم حركة التاريخ ، ولا تزداد هذه المخاطر والمفارقات بصورة مقلقة مع تيارات العولمة الزاحفة من خلال ثورة الاتصالات وهيمنة القوى المالكة لآلياتها ورسائلها .(**)

وإلى جانب هذه المشكلة الكبرى فى رباعية التعليم وانعكاساتها السلبية فى إطار العولمة ، لابد من العمل كحد أدنى لمحاصرة تلك السلبيات واتخاذ سقف معين فى توسع التعليم الخاص والأجنبى وإقامة جسور وإجراءات لانسياب الطلاب بين التعليم الحكومى والتعليم الأزهرى .

كذلك على العشوائيات الفكرية فى التربية أن تكف عن وجهة النظر الكتابية على أن تعليمنا الرسمى هو نظام تعليمى مستورد ، والزعم بأنه كان قناة للغزو الثقافى والتغريب . ولكن أسس هذا التعليم وجذوره قد تعمقت وامتدت وأصبح أداة لتأسيس الدولة الحديثة فى مصر بمؤسساتها وسيادتها فى بنية الشرائح الاجتماعية الحالية وحراكها . إنه مناط التطوير كنسق هام من أنساق التقدم وحيوية الكيان الاجتماعى .

وثمة مسائل كثيرة عالقة تتطلب تحديد مسئوليات الدولة والمجتمع التى تنشدها من نظام التعليم كما يحتاج الأمر فى الوقت ذاته إلى الوفاق الرسمى والمجتمعى لما يتطلبه التعليم كى يحقق كثيرا من المسائل العالقة كالقضاء على الأمية ، واستكمال معدلات القيد والاستيعاب لكل الأطفال فى التعليم الاساسى ، وفى مد هذا التعليم إلى المرحلة الثانوية والتوسع فى التعليم الجامعى . هذا إلى جانب تجويد العملية التعليمية وانتقالها من مجرد التلقين والحفظ والاسترجاع إلى تنمية التفكير بمختلف مناهجه وأدواته العلمية وبخاصة توظيف مصادرها وآلياتها المعلوماتية والتكنولوجية وإلى تحفيز عمليات الاتفاق والتجديد والابتكار والابداع وديمقراطية التعليم . ومن ثم يغدو تعليمنا عاملا فعالا فى النهضة وإرساء مشروع حضارى قومى يوفر أكبر قاعدة للعدل الاجتماعى والعمل المنتج والخلاق والقدرة على التنمية الذاتية تفرضها منجزات

(*) القضايا الواردة عن نظرية الفوضى (الشواش) الواردة هنا مأخوذة من مقال أ .د . جمال إبراهيم ، على هامش الفوضى بتطور العلم ، مجلة الإنسان والتطور السنة العشرون ، العدد ٦٥ ، ٦٦ إبريل / يوليو ١٩٩٩ .

(**) انظر ، حسين كامل بهاء الدين ، الوطنية فى مجتمع بلا هوية ، والذى أفاض فى تشخيص هذه الإشكالية وفى وسائل مواجهتها تعليماً وثقافة .

الحضارات الإنسانية المختلفة فى إطار مجتمع المشاركة الديمقراطية على مختلف المستويات وفى متعدد المجالات .

مما لا شك فيه أن التعليم مصدر من مصادر الاستنارة لكن يبدو أن أضواءه العلمية سواء فى داخله أو فى إشعاعاتها الخارجية لم تمتد مساحة أو عمقاً فى فضاء الثقافة العامة وعلى أرضها ويظل عالقا فى أذهاننا ما تقدم به أحد نواب مجلس الشعب من اقتراح بتدريس الطب الروحانى فى الجامعات وقدرته على ممارسة الجراحة دون مشرط واستخدام السحر فى علاج كثير من الأمراض !! وتبقى الأمية وشحوب التركيز على المناهج والأساليب العلمية فى التعليم مصدرا لتوليد كثير من الخرافات والأوهام ، وفى اللجوء إلى (السبب النجومى) دون التفكير فى (السبب الأرضى) فى فهم الواقع والحكم عليه ، متجاهلين (التقصيد بسببه أو علته أو شرطه) كما يقول ابن خلدون فى مقدمته .

يظل من التحديات الكبرى التى يواجهها تعليمنا حاليا تلك البنية الرباعية التى تتمثل فى التعليم الرسمى والخاص والأزهرى والأجنبى . وإذا كان القطاع الحكومى هو الحجم الأكبر طلاباً يقع تحت السيطرة المركزية لوزارة التربية والتعليم والمحافظين والإدارات التعليمية الإقليمية فإننا نجد أن التعليم الخاص يقع تحت إشراف الوزارة لكنها تتم بصورة غير مكتملة أو منتظمة أو دقيقة . أما المدارس والجامعات الأجنبية فلا سلطة ولا تدخل ولا أشراف عليها من المجلس الأعلى للجامعات أو وزارة التعليم العالى .

أما بعد لا يتسع المجال هنا لتفضيل تداعيات المشهد الحالى للتعليم الذى فتحت الأبواب لإنماطه الاستثمارية الخاصة مع حركة السوق سلعا وخدمات ، ومن بينها مخاطر القاعدة المشتركة للقيم والمفاهيم الوطنية أداة التماسك والوفاق الاجتماعي . هذا فضلا عن أسس تكافؤ الفرص مع اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، والتى بدأت منذ توحيد مرحلة التعليم الابتدائي ومجانية التعليم فى مراحله المختلفة والتى اكتملت فى أوائل الستينيات . ومن تداعيات هذه المنظومة الرباعية تخريج قيادات مجتمعية تتفاوت قليلا أو كثيرا فى منطلقاتها الفكرية وأولوياتها المجتمعية ورؤاها المستقبلية فى الشئون

(١) انظر ، حامد عمار : التنمية البشرية وتعليم المستقبل .

الداخلية والخارجية .التعليم بين المدينة والقرية والعاصمة والمحافظات وبين محافظات الوجه البحرى ومحافظات الوجه القبلى وبين الذكور والإناث يضاف إلى ذلك كله التعثر والتلكؤ فى محو أمية الكبار فقد أجهض قانون ١٩٤٤المقتحم بتأثير كبار الملاك الزراعيين والتجار والصناعيين . كذلك كانت جهود القوانين التالية وآخرها قانون ١٩٨٧ ذات تأثير متواضع فى مواجهة هذه المشكلة المزمنة .

ومع التركيز على الوحدة الوطنية تتسرب بين الحين والآخر إلى المدارس والتعليم العالى سواء من خلال المدرسين أنفسهم أو من خلال قوى خارجية ضاغطة إلى بذر بذور التفرقة والتعصب الايديولوجى والدينى ، كما يتجلى أحيانا فى انتخابات اتحادات الطلاب فى الجامعات ، وفى انضمام أعداد من الطلاب بعد تخرجهم أو انقطاعهم عن الدراسة إلى جماعات العنف ، هذا فى الوقت الذى تضاءل فيه الاهتمام بمقومات الانتماء وضروراته مع بقية أقطار الأمة العربية .

ثم إن ديمقراطية وتعليم الديمقراطية تصبح وهما حين لا يستطيع الأساتذة انتخاب عمدائهم وحين يحاكمون على أفكارهم العلمية من خارج ما استقرت عليه مفاهيم تخصصهم من منهج ومنطق ودون ادراك بأنه لا حياء فى العلم طالما أنه لا ينتقص من أمن الوطن وكرامة المواطن والاستخفاف بالعقائد الدينية وتختزل التربية السياسية فى محاضرات ثقافية عامة ويحرم الطلاب من الممارسة السياسية داخل الحرم الجامعى .

على الرغم من أن التعليم ينتج القوى البشرية اللازمة لتزويد منظومته تظل أعداد كبيرة من المعلمين غير مؤهلين تأهيلا تربويا ، كما يظل التعليم الجامعى فى كثير من الحالات منتجاً لحملة رسائل الدكتوراه دون أن يكون التكوين العلمى والثقافى متكافئا مع رسالة عضو هيئة التدريس الجامعى . وتغدو الصلة مفقودة بين عرض البحوث العلمية والطلب عليها إلى حد كبير دون أن يرتبط الإنتاج العلمى بالطلب عليه من مؤسسات الإنتاج والخدمات والمرافق أو العكس .

ومع هذه المعالم الإيجابية فى تطور التعليم منذ الكُتّاب حتى اليوم تتعرض الاسهامات السابقة إلى إشكاليات فى حركتها بين تقدم ونكوص وبين اقتحام وتردد

وبين مقاصد ضرورية ومجرد أشكال وإجراءات حداثية وبين مطالب إنمائية حقيقية ومؤسسات هزيلة شبحية إبراء للذمة ومن أمثلة ذلك :

١ - يسود بناء الدولة فى جانب مؤسساتها المدنية هيمنة البيروقراطية وسيطرة التوجهات العلوية وتنازع الاختصاصات وعدم التنسيق بما فى ذلك حركتها وكفاءتها العلمية فالمركزية هى مفتاح تلك المؤسسات ولعل إلغاء انتخاب العمداء فى الكليات الجامعية معلم من عشرات المعالم على هذه السيطرة الإدارية على مسيرة الجامعات واستقلاليتها فى القرار والتدبير الذاتى .

٢ - ما يزال التعليم رغم ما يحققه من حراك اجتماعى ، أسيراً للقدرات المالية عوضا عن القدرات العقلية والمواهب من خلال الدروس الخصوصية ومصروفات المدارس والجامعات الخاصة ومدى عدم تكافؤ الفرص الناجم عن التباينات الاقتصادية والخلفيات الإجتماعية لأحوال أسر الطلاب وظروف معيشتهم مما يؤدى إلى التسرب أو الانقطاع عن مواصلة التعليم .

٣ - ومع التركيز على إعداد الكوادر البشرية التى يتطلبها القطاع الاقتصادي الحديث ومجالات الاستثمار الخاص ، تحتل المدارس فى قطاع الريف عناية محدودة وبطيئة ، مما أدى إلى شيوع الأمية أو الارتداد فى مهارات التعليم هذا فضلا عن تدنى مستويات التعليم المهنى الذى يلتحق به ثلثا أبناء الفقراء من الريف والمدن ، وافتقارهم إلى فرص فى تعليم الكبار أو التعليم غير النظامى . ومن مؤشرات ذلك القصور فى احتياجات المحافظات خارج القاهرة والإسكندرية و بعض العواصم الاقليمية الكبرى ما تشكو منه بعض الجامعات الإقليمية من عدم توفير الأساتذة والمتطلبات الأساسية للتعليم والبحث العلمى ويرتبط بذلك كله الفروق فى فرص التعليم بين المدينة والقرية ، والعاصمة والمحافظات ، وبين محافظات الوجه البحري ومحافظات الوجه القبلى ، وبين الذكور والإناث .

٤ - تبلغ نسبة الحاصلين على تعليم جامعى / عالى فى قوة العمل إلى حوالى ١٢٪ وفى جملة السكان حوالى ٧,٥٪ وهى نسبة متدنية .

٥ -يبلغ معدل سنوات التمدرس لمن هم فى سن ٢٥ سنة فما فوق (أى عدد

السنوات التى قضوها فى التعليم منظم) حوالى ٥ر٥ سنة فى حين أنها بلغت ١٢ سنة فى الدول الصناعية ، ٨ سنوات فى كوريا الجنوبية .

وفى الرباعية البنيوية لنظام التعليم الخاص ما قبل الجامعي لعام (٢٠٠٠) حوالى ٦٪ من مجموع طلاب المدارس الحكومية وقد تزايدات هذه النسبة خلال الأعوام الخمسة الماضية حين بلغت ٤٪ كذلك يمثل التعليم الأزهري فى المعاهد حوالى ٥٪ من التعليم الحكومي فى هذه المرحلة . ونسبة التعليم الجامعي / العالي الخاص والأجنبى نسبة أقل من ٢٪ من التعليم الجامعي / العالي الحكومي لكن فرص التوظف فى سوق العمل تكاد أن تتناسب تناسبا طرديا مع نسبة التعليم العالي الخاص إلى نظيره الحكومي .

وإذا نظرنا إلى المشهد من الناحية الكمية فسوف نجد ما يلى :

١ - معدل القيد الصافي فى التعليم الابتدائي (نسبة إلى العمر المناظر من ٦-١١ سنة فى السكان) يصل إلى حوالى ٩٠٪ .

٢ - معدل القيد الصافي فى التعليم الإعدادي (نسبة إلى العمر المناظر من ١٢-١٤ سنة فى السكان) تصل إلى حوالي ٨٢٪ .

والمفروض أن تصل هذه النسب إلى ١٠٠٪ كنسبة معيارية مع إلزامية التعليم الأساسي بحلقتيه .

٣ - معدل القيد الصافي فى التعليم الثانوي عام وفني (نسبة إلى العمر من ١٥-١٧ سنة المناظر من السكان) يصل إلى حوالى ٤٢٪ .

ومن المنشود أن تصبح المرحلة الثانوية جزء من التعليم الأساسي الإلزامي مع الحاجة الماسة إلى رفع مستويات الحالة التعليمية للسكان مع نهاية الخطة الخمسية السابعة عام ٢٠١٧ ومع تحديات ثورة المعرفة .

٤ - معدل القيد الصافي فى التعليم الجامعي / العالي (نسبة إلى العمر من ١٨-٢٣سنة من السكان) يصل إلى حوالى ١٩٪ فى حين أنه بلغ كمتوسط حوالى ٦٥٪ فى الدول الصناعية وبعضها وصل إلى ٨٥٪ وإلى متوسط ٣٠٪ فى دول أمريكا اللاتينية ، وإلى حوالى٤٥٪ فى كوريا الجنوبية .

ومع زحف تيارات العولمة وثورة الكمبيوتر والإفادة منها فى عمليات التعليم جرت إصلاحات وتطورات متعددة فى كل من التعليم ما قبل الجامعى والتعليم الجامعى / العالى وانعقدت لذلك مؤتمرات عدة وأصبح لدينا ما يقرب من (١٦) مليون طالبا وطالبة فى التعليم العام وما يقرب من مليون فى التعليم الجامعى العالى وتعززت القناعة بمقولة (التعليم هو الحل وهو المشكلة فى الوقت ذاته) .

إسهامات التعليم الحديث :

ومن المنظور التاريخى يمكن أن نسجل بصورة عامه إسهامات التعليم الحديث فى علاقته الجدلية وسياقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيما يلى :

١ - بناء الدولة ومؤسساتها الحديثة إدارة وقانوناً وجيشاً وأمناً .

٢ - تطوير البنية الطبقية والشرائح الاجتماعية وحراكها الاجتماعى من خلال تكوين الطبقات الوسطى والعمال والفلاحين وفئات المهنيين والانتلجنتسيا (المثقفين) والتوسع الملحوظ فى تعليم البنت وبداية الاهتمام بتعليم ذوى الاحتياجات الخاصة من المعاقين والمتفوقين والموهوبين .

٣ - تنظيم قطاع اقتصادى حديث بمؤسساته الإنتاجية والخدمية والتجارية والمالية بما يوفره من القوى العاملة لهذا القطاع .

٤ - ترسيخ دعائم الوحدة الوطنية ووشائج القومية العربية ومقومات المعرفة بالحقوق والواجبات والانتماء فى مفهوم المواطنة .

٥ - القناعة بضرورة صياغة العمل الوطني من خلال الإطار الديمقراطي دستورا وانتخابا وترشيحا وتمتع المرأة بحقوقها السياسية والاجتماعية والتعليمية دون تمييز .

٦ - إعداد فئات من الباحثين العلميين والخبراء فى مجالات المعرفة العلمية والتكنولوجية والإفادة من الثورات المعرفية والمعلوماتية وآلياتها .

٧ - الاستنارة الثقافية العامة فى المجتمع وتكوين فئات المشتغلين بالفنون الإبداعية بمختلف صورها وأساليب تعبيرها فضلا عن أولئك المتخصصين فى مجالات الإعلام بمختلف قنواته .

مشهد التعليم الحالى :

ومشهد التعليم الحالى يمكن تطويره من حيث بنيته وتبعيته وأجوائه الفكرية على النحو التالى :

١ . مدارس وجامعات ومعاهد عليا حكومية معظمها بالمجان ، والتدريس فيها باللغة العربية وإن اخترقها بعض الشعب والمؤسسات التى تتقاضى بعض المصروفات وتدرس بعض العلوم أوكلها باللغات الاجنبية كمدارس اللغات التجريبية وفى بعض شعب التخصصات الجامعية كما فى كلية التجارة والحقوق وكليات التربية والإعلام هذا إلى جانب كليات الطب والصيدلة وبعض شعب كليات العلوم حيث التعليم أصلا بالمجان لكن تغلب عليه التدريس باللغة الأجنبية .

٢ . مدارس خاصة عربية وبعضها يتسمى بمدارس إسلامية ومدارس لغات يتسمى كثير منها بأسماء أجنبية وجامعات معاهد تتقاضى مصروفات ومعظم تعليمه باللغات الأجنبية وتتقاضى مصروفات متفاوته فى تقديراتها حيث يتجاوز بعضها ستة أمثال متوسط دخل الفرد فى مصر .

٣ . مدارس وجامعة أجنبية (الجامعة الامريكية) تعنى فى الأغلب بأبناء دولها وتتبع سفارتها ويدخل إليها استثناء نسبة محظوظة من أبناء المصريين بناتهم .

ومع سنوات الثورة التى شهدت فيها مصر التحرر من الاحتلال البريطانى ، وتصاعد المد القومى العربى وبخاصة فى الوحدة مع سوريا التى سرعان ما أجهضت ومع التصدى للعدو الصهيونى شهدت مناهج التعليم ومقرراته ما كان يموج به المجتمع من امتيازات سياسية واجتماعية وقومية ، وفى جميع الحالات رسخت هذه الفترة الحق الدستورى فى التعليم بالمجان ، وسعى نحو إنجاز تنمية شاملة ذاتية فى مختلف مراحل ، ومع ذلك فقد انعكس ترسيخ التوجه الاشتراكى والقومى فى اللجوء إلى أسلوب الدعوة والتعبئة دون التعليم وإلى المركزية والتنميط فى المفاهيم ومن خلال الشعارات ، ولم تختلف الطرق التعليمية كثيرا عن الأساليب السابقة بل أصابها الجمود فى أخريات الستينيات مع بداية تجارة الدروس الخصوصية .

ملامح من حركة التيارات التعليمية

١- مع محمد على وخلفائه :

إن ارتباط التعليم بحاجات الدولة وتحديثها يتضح من مسيرة التعليم منذ أسسه محمد علي امتداداً إلى خلفائه حتى اليوم ، وهو ما سيتم التركيز عليه بصورة خاصة ومن المعلوم أن محمد على قد أراد من الاقتداء بالتعليم الأوربى أن يوفر لدولته ولجيشه الكفاءات البشرية التى يتطلبانها . وقد استطاع أن يحقق ذلك بكفاءة نادرة . لكننا ينبغى أن نلتفت إلى أنه بعد انهيار أحلامه منذ عام ١٨٤٠ ، أخذ الجيش فى التقلص كما أخذ نمو المدارس فى التراجع . ومن المعروف أن سعيد قد قام بإقفال معظم المدارس ، ولم يبق منها إلا أعدادا محدودة لتسيير أحوال الدولة ، وعندما انعدمت الحاجة إلى جيش كبير ، معللا ذلك كما هو معروف بأن (الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم)

وفى عصر إسماعيل انتقل نظام التعليم تدريجيا من ديوان الجهادية إلى ديوان المدارس ومع التوجه الكبير إلى جعل مصر قطعة من أوربا ، اتسعت دائرة النقل والحداثة- دون التحديث - من النظم والمؤسسات الغربية . ومن بينها إنشاء أول مدرسة للبنات وبعض المدارس الصناعية لخدمة مرافق الدولة كالسكك الحديدية والسفن البحرية ، ومما تطلبته (آمال الأسرة الحاكمة وحاجات التمدين فى العصر الجديد) حسب عبارة الوقائع الرسمية فى ذاك الوقت . وقد انصرف جهد كبير من مظاهر الحداثة تمجيدا وزهوا لعظمة الخديو ، كما هو معروف من إسرافه فى احتفالات قناة السويس ، وزواج أبنائه وافتتاح دار الأوبرا إلى غير ذلك من المشروعات .وقد أدى التوجه للحداثة إلى المدارس الأجنبية وتغلغلها فى بعض أرجاء مصر بل ومساعدتها من قبل إسماعيل .

ومع ذلك فلا ينبغى إغفال ما حدث من بعض التوجهات الليبرالية وآثارها نتيجة لأفكار رفاعة الطهطاوى وعلي مبارك من تأكيد لأهمية التعليم وضرورة نشره . ولعل من أهم معالمها ما تمخض عنه قرار مجلس الشورى حول ضرورة مكافحة الأمية ، ثم جهود علي مبارك فى إصدار (لائحة رجب ١٢٨٤ هـ - نوفمبر ١٨٦٨م) بإنشاء مدارس ابتدائية جديدة وتحسين أحوال الكتاتيب وإنشاء دار العلوم لإعداد المعلم . لكن الضائقة المالية

وعظمة الخديو صاحب الإحسانات لم تتح لتلك التوجهات مساحة للنمو ، وذلك مما رسخ تيار تأثر التعليم مداً وجزراً فى نموه وتنوعه بالحاجات المحددة للدولة ومؤسساتها وما استجد من بدايات السماح بإنشاء المدارس الأجنبية التى أتسع نطاقها أثناء الاحتلال البريطانى .(*)

٢- مع الاحتلال البريطانى

ويستمر ارتباط التعليم بحاجات الدولة وحداثة مؤسساتها مع الاحتلال البريطانى وخضوعها للسيطرة الأجنبية وامتيازاها ونفوذها .ولم يأت عام ١٨٨٣ إلا وأقفلت ٢٢ مدرسة أميرية بحجة الاقتصاد فى النفقات ، وتم تقليص عدد المقبولين فى المدارس حسب حاجات الدولة من الموظفين والكتبة سدا لاحتياجات الإدارة البريطانية من هذه الفئة من الوظائف ،حيث كانت الوظائف الكبرى مقتصرة على البريطانيين ، وأضيف إلى ذلك كله تقرير المصروفات المدرسية على أنواع التعليم العام إلى جانب تعليم المواد باللغة الإنجليزية ومقاومة إنشاء الجامعة الأهلية ، وذلك بدعوى الأولوية للتوسع في الكتاتيب وورش التعليم الصناعى .

وهكذا حرص الاحتلال البريطانى على أن يجعل من التعليم كمًا ونوعاً أداة خادمة ومضبوطة لتحقيق حاجات إدارته ومرافقها . وكانت فلسفة التحكم بمعيار(القدر المعلوم بالقطارة) في سياسة التعليم تسيطر على مختلف المجالات الاقتصادية والعمرانية فى العديد من مرافق المجتمع . وارتبط هذا التحكم فى السياسات العامة بإدخال اقتصاد مصر بصورة متنامية مع الاقتصاد الرأسمالى البريطانى لتكون مصر مزرعة لانتاج القطن بخاصة وتصديره إلى المصانع البريطانية فى لانكشير . وهذا ما يفسر التوسع فى مشاريع الرى وإنشاء خزان أسوان وتعليته وإدخال الرى الدائم فى الدلتا بدلاً من رى الحياض الموسمى السائد قبل ذلك . ويجئ إنشاء بنك مصر عام ١٩٢٠ ونمو فروعه وشركاته تباعاً واقتحاماً لهيمنة الأجانب على عالم الصناعة والمال خلال السنوات العشر التالية .

واحتدمت فى مصر منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى الصدامات بين الإنجليز والأحزاب السياسية ، كما تنازعت كل منها حق التحدث بإسم الشعب للمفاوضة من

(*) انظر : أميل فهمى شنودة ، تاريخ التعليم الصناعى حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ .

أجل الاستقلال . وكانت ذروة تلك المطالب : الإستقلال والدستور . فقد قام بإقفال المدارس ولم يبق منها إلا أعدادا محدودة لتسيير أحوال الدولة ، وعندما إنعدمت الحاجة إلى جيش كبير معللا ذلك كما هو معروف بأن (الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم) .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ومجيئ قيام ثورة ١٩١٩ التى كانت انفجارا عن السخط المكبوت من الحماية البريطانية والأوضاع السياسية والاقتصادية إذ ذاك . وقد قامت الفئات المثقفة بتعبئة الجماهير فى المدن والقرى . وغدت الثورة مدرسة وطنية اشترك فيها الفلاحون والعمال والتجار من المسلمين والأقباط مما أزعج سلطات الحماية والمراقبين الأجانب . ومع محاولة السلطة العسكرية البريطانية لمنع التجمعات الوطنية لم تستطع الاقتراب من اقتحام الأزهر لمكانته الدينية . لذلك كانت منابره مجالا للخطب الثورية ، تردد عليها الخطباء من مختلف الطبقات ووقف عليها رجال الدين المسيحى من أمثال القمص سرجيوس والقمص غبريال كما أعتلاها علماء الازهر من أمثال الشيخين مصطفى القاياتى ومحمود أبو العيون إلى جانب المهنيين من المحامين والأطباء والأدباء(*) كأنما كانت الثورة تتحسب لتصريح ٢٢ فبراير وإعطاء مصر استقلالا ذاتيا مع تحفظات من بينها حماية الأقليات .

أضف إلى تلك المعالم فى السيطرة الاقتصادية والتعليمية ما ترتب على فرض المصروفات فى التعليم من تكوين نواة من طبقة (الأفندية) من أبناء كبار الملاك الزراعيين وأرباب الصناعة ، وممن أرتبطت مصالحهم مع المصالح البريطانية إلى حد كبير . وهكذا أصبح التعليم أداة من أدوات الحصول على النفوذ والجاه والسلطة جزاء لما ينالون من حظوة السلطة ، ومع ذلك أشاعت السلطات البريطانية بأن مصر لا تتوافر فيها مقومات الصناعة بل قضت على المصانع الصغيرة القائمة بالاندثار نتيجة لما فرض من رسوم عالية على ما تستورده أو تصدره من مصنوعات بازغة وبخاصة من المنسوجات القطنية . ولذلك أهمل التعليم الصناعى رغم ادعائهم بأهميته .

(*) عبد العظيم رمضان ، دراسات فى تاريخ مصر المعاصر

٣ - مع الحركة الوطنية

وتقوى مشاعر الحركة الوطنية فى المطالبة بالاستقلال ويأتى التعليم نظاماً وأساتذة وطلابا وراء قوة تلك الحركة . وارتفعت دعوة إصلاح التعليم من جديد والتى أحياها محمد عبده واحتضنها مصطفى كامل الذى أيقظ النشاط السياسي للطلاب للانضمام إلى الحركة الوطنية ضد الاحتلال ثم يأتى محمد فريد داعيا إلى حركة التعليم الشعبى ومدارس العمال لمحو الأمية ثم أعاد سعد زغلول التعليم باللغة العربية عندما كان ناظرا للمعارف عام ١٩٠٧ كما أدخل تعليم الدين المسيحى فى المدارس فى تلك السنة وبدأت بعض الجهود الصناعية والمالية الوطنية فى الظهور .

وقد ترسخت أهداف الوحدة الوطنية والانتماء فى تراث الشعب المصرى ومقومات تعليمه وثقافته منذ ذلك التاريخ ، وصمدت لمختلف العواصف وكان علم الثورة قد اتخذ له رسما يتوسطه الهلال وأبدلت النجوم بالصلبان كما تميزت تلك الثورة بمشاركة المرأة اشتغالا بالسياسة وتحملا لمسئولياتها والواقع أن الفترة منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى كانت حافلة بالاهتمام بشئون الاستقلال والدستور وما ارتبط بهما من تيارات سياسية مدا وجزرا مع الملكية منذ أن تولى (السلطان) ثم الملك فؤاد عرش مصر ولم تشهد الساحة التعليمية أحداثا بارزة فى منظومتها، ومع ذلك فقد وفرت المدارس الثانوية والجامعات رصيدا لكسب الطلاب فى الحركة القومية والدستورية وفى استخدام الأحزاب لهم - باعتبارهم الفئة التى يمكن حشدها - فى المظاهرات العامة وقيادتها . وكان ما حدث فى مظاهرات عام ١٩٤٦ مشهدا رائعا حين يتم الائتلاف بين الطلبة والعمال للاحتجاج على فساد الحكم وديكتاتورية الملكية فضلا عن تدنى الأحوال المعيشية بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد أدت ثورة ١٩١٩ وما تبعها من تعبئة للتيارات الوطنية إلى نجاحها فى انتزاع مطالع الاستقلال الذاتى من خلال تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وصياغة ما عرف بدستور ١٩٢٣ الذى جاء مدعما لنفوذ وسيطرة فئة البرجوازية من ملاك الأراضى وأرباب الصناعة ومما مكنها بعد ذلك من شغل الوظائف الحكومية التى كان يشغلها البريطانيون سواء فى الجيش أو فى الشرطة أو الإدارة الحكومية وبعد معاهدة ١٩٣٦ وإلغاء الامتيازات

الأجنبية تمكنت الحكومة من إجبار الشركات على استعمال اللغة العربية إلى جانب إحلال المصريين في أجهزة الدولة .

٤ - مع الوعي الوطني والحرب العالمية الثانية :

ولقد استمرت معركة المجانية وتوحيد المرحلة الأولى من التعليم (المدرسة الإلزامية المجانية والمدرسة الابتدائية) بمصروفات . ومع نمو الطبقة الوسطى والوعى الفلاحى العمالى بأهمية التعليم وما تمخضت عنه الحرب العالمية الثانية من اتجاهات ونزوع نحو الديمقراطية ازداد الضغط الشعبى على مفاهيم تكافؤ الفرص التعليمية وترتب على ذلك إلغاء المصروفات المدرسية من التعليم الابتدائى عام ١٩٤٤ وفى هذا العام أيضا صدر قانون مكافحة الأمية رقم ١١٠ والمعدل لقانون ١٢٨ لسنة ٤٦ . وقد أوجب على أصحاب المؤسسات الصناعية والأعمال التجارية إنشاء وحدات خاصة لمكافحة الأمية وعلى من يملكون مائتى فدان فأكثر أن يقوموا بتعليم العمال لديهم وأن يتحملوا كافة نفقات الفصول الدراسية وإذا لم يقوموا بها تولت الوزارة تعليمهم على نفقة أصحاب الأعمال وملاك الأرض كم كلفت وزارة الحربية والداخلية والمصالح الحكومية بواجب تعليم الأميين فى دوائر عملهم . وتبع ذلك توحيد المرحلة الأولى من التعليم فى المدرسة الابتدائية عام ١٩٥١ والذى تباطأ تنفيذه حتى تحقق فى السنة الأولى من قيام عام ١٩٥٢ ، كما تم إقرار مجانية التعليم الثانوى عام ١٩٥١ بفضل جهود طه حسين الذى كان وزيرا للمعارف إذ ذاك فى حكومة الوفد.

٥-مع المرحلة الناصرية :

واكتملت قصة المجانية فصولا بإلغاء المصروفات فى الجامعة والتعليم العالى عام ١٩٦٣ كجزء من الإجراءات الاشتراكية التى اتخذتها المرحلة الناصرية فى الحكم .

والواقع أن كل القوانين والتطورات فى فرص التعليم وتوسيع قاعدته وتدفق مراحله جاءت نتيجة لصراعات سياسية وضغوط اجتماعية أملتها المتغيرات الداخلية من تنامي الوعى الوطنى وتأثير التيارات الخارجية فى المجتمع المصري حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . ومع المرحلة الناصرية شهد التعليم فى مصر أكبر قدر من نمو الكمي فى مختلف مراحله ، وأتيح لنسب متزايدة من طبقات الفلاحين والعمال والموظفين وذوى

الدخل المحدود من الالتحاق بالتعليم الثانوى والجامعى . كما امتدت مرحلة التعليم الإجبارى لتشمل تسع سنوات بدلاً من ست وذلك فى المدارس الابتدائية والإعدادية التى تعرف بالتعليم الأساسى . ولم يعد التعليم منفصلاً لتعليم الأغنياء وأبناء الطبقة الوسطى القادرة على دفع المصروفات .

وتشير الإحصاءات إلى معدلات غير مسبوقة فى قيد الطلاب فى مختلف مراحل التعليم فيما بين ١٩٥٣/١٩٥٢ ، ١٩٦٩ / ١٩٧٠ إذ زاد مجموع عدد المقيدين فى التعليم الابتدائى من (١,٣) مليون إلى (٤) مليون تلميذاً وتلميذة منهم طالبات (½) مليون إلى (١ر٥) مليون تلميذة ، وفي التعليم الإعدادى من (٣٤٠)ألف إلى واحد مليون طالبة وطالبا ، منهم (٧٢) إلى (٣٤٠)ألف طالبة ، وفى الثانوى العام (٩٢) ألف إلى (٣٢١) ألف طالبة وطالبا ، منهم (١٣) ألف إلى (١٠٣) طالبة . وفى التعليم الفنى (١٩) ألف إلى (٢٩٨) طالبا وطالبة وفى الجامعات والمعاهد العلية من (٤٣) ألف إلى (١٧٢) ألف طالبا وطالبة ، منهم (٢ر٤) ألف طالبا إلى (٧٢) ألف طالبة .

ويمكن إنجاز هذا النمو الهائل في زيادة إجمالى الطلاب ذكورا وإناثا إلى حوالى أربعة أمثال ما كان عليه في بداية الثورة ، وإلى زيادة عدد الطالبات إلى أكثر من ست أمثاله في نفس الفترة . ولا شك أن هذا يعنى حراكا اجتماعيا وبخاصة في نمو الطبقة الوسطى في مقابل مجتمع النصف في المائة من كبار الملاك والرأسمالية الصناعية الذي سيطر على مقدرات الحكم منذ عشرينيات القرن الماضى .

ومع سنوات الثورة التى شهدت فيها مصر التحرر من الاحتلال البريطانى ، وتصاعد المد القومي العربي ، وبخاصة في الوحدة مع سوريا والتي سرعان ما أجهضت ، ومع التصدى للعدو الصهيونى ، شهدت مناهج التعليم ومقرراته ما كان يموج به المجتمع من تيارات سياسية واجتماعية وقومية ، وسعي نحو إنجاز تنمية شاملة ذاتية . وفي جميع الحالات رسخت هذه الفترة الحق الدستوري في التعليم بالمجان في مختلف مراحله . ومع ذلك فقد انعكس ترسيخ التوجه الاشتراكى والقومى في اللجوء إلى أسلوب الدعوة والتعبئة دون التعليم ، وإلى المركزية والتنمية في المفاهيم ومن خلال الشعارات ، ولم تختلف الطرق التعليمية كثيرا عن الأساليب السابقة ، بل أصابها الجمود في أخريات الستينيات مع بداية تجارة الدروس الخصوصية .

٦- فى مرحلة الانفتاح الاقتصادى :

ومع مطلع السبعينات بدأت الدولة تأخذ فى التوجه الرأسمالى والانفتاح إلى آليات السوق ومع الثمانينات والتسعينات اتسعت دائرة الخصخصة لقطاعات الإنتاج والخدمات والمرافق والاندماج فى السوق العالمية تحريراً للتجارة وللاستثمارات الخاصة والأجنبية وانفتح المجال للاستثمار الخاص فى التعليم سواء فى المدارس الخاصة بالعربية أو ما عرف بمدارس اللغات هذا فضلا عن الجامعات الخاصة الأربعة وأخذت تتسع مساحة الفجوة بين الأغنياء والفقراء وظل التعليم الفنى (الثانوى الصناعى والزراعى والتجارى) هو الذى يستقبل الغالبية العظمى من أبناء الفقراء وبناتهم ، كذلك ظلت قضية الثنائية فى التعليم الثانوى غير محسومة حتى الآن .

وتميزت هذه الفترة بظاهرة تغلغل الرؤى الفقهية السلفية فى المناهج وفى تشجيع التصادم بين فريق العودة إلى الماضى ضد أى فريق آخر من زملائهم الطلاب . وإلى تغيرات فى زى الطالبات بالتزام الحجاب حتى فى المدارس الابتدائية . واحتضن عدد من المدارس الإسلامية نموذجا خاصا بالجو المدرسى كما احتضنت بعض المدارس الدعوة إلى بعض الأساطير والخرافات والعادات مما ليس فى صحيح الدين .

من معالم مسيرة التعليم الحديث :

ونود أن نطرح هنا بعض التيارات والقوى التى أثرت فى مسيرة التعليم الحديث بصورة عامة ومنذ بدايته شكلت أهدافه وسياساته فى تفاعلها مع قوى المجتمع وأنساقه الأخرى ويمكن تلخيص تلك التيارات فى سباعية من التوجهات والتشابكات المنظومة التعليمية الحديثة وحركة المجتمع المصرى كما أثرت فى منظومة التعليم الدينى وأن لم يتسع المقال للإفاضة فيها وتلك التيارات والتوجهات هى :

١ - الارتباط الوثيق بين الدولة والسلطة الحاكمة والقوى الاجتماعية المرتبطة بها من ناحية وبين التوظيف لسياسات التعليم وأهدافه وما يترتب على ذلك من المركزية الطاغية في إدارته وضبط إيقاع العمل في مؤسساته .

٢ - جعل التعليم ومخرجاته أداة لحداثة مؤسسات الدولة ومشروعاتها العمرانية وفي خدمة القطاع الاقتصادى الحديث مع إيلاء المرتبة الثانوية لحداثة البيئات وقطاعات

الاقتصاد التقليدى وثقافته وقيمه فى الريف والأحياء الشعبية .

٣- الحداثة الشكلية لأساليب التعليم ومؤسساته دون الاهتمام بتحديث الذهنية وتثوير الفكر وتمثل المعارف الحديثة وتوظيفها المحدود ، وقلة الاهتمام بتجديد المعرفة وتوليد معارف جديدة .

٤- اندماج التعليم فى الحركات الوطنية والديمقراطية أحيانا أو تحجيم دوره أحيانا أخرى سواء فى الجهد القومى العام أو فى النشاط السياسي الحزبي .

٥- تأثر التعليم وتأثيره فى الحراك الاجتماعى وفى الحركة الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وفى تقليل الفوارق الطبقية بالسياق السياسي ومحدداته مداً وجزراً .

٦- دور التعليم فى التوجهات الاقتصادية ومدى استجابته ومرونته فى الوفاء باحتياجات سوق العمل ، سواء فى فترة التحول الرأسمالى أو الاشتراكى أو الانفتاح لآليات السوق وظاهرة العولمة وثقافتها .

٧- تأثر التعليم نموا وانكماشا وجمودا بالمعارك الثقافية بين أقطاب اليمين واليسار والوسط فى المنظور الأيديولوجى .

وبعض هذه التيارات برزت بصورة حادة أكثر من غيرها فى حقب معينة من التاريخ المصرى بيد أنها جميعا تتغلغل فى نسيج المنظومة التعليمية وتفاعلاتها فيما بينها ، قوة ووزنا ، ومداً وجزراً ، وإيجاباً وسلباً .

إحياء الكُتّاب رمز للأيديولوجية الماضوية

إن رمز الكُتّاب من الناحية الايستمولوجية إنما يعنى لدى أصحاب دعوة إحيائه التمسك بالرصيد المعرفى التراثى ونقله من جيل إلى جيل ويشكل الماضى فى أفقهم الثقافى بما تضمنه من فكر وتفكير ومن صور نماذج قيمة وسلوكيات الإطار المرجعى ، وبصلة التوجيه لفهم الحاضر والسعى نحو المستقبل ويرتبط بذلك وجدانيا حنين إلى ذلك الماضى اللا متحدد كأنه الفردوس المفقود .

وتغدو عمليات التعليم والتعلم اجترارا وتكرارا حيث يقال (تلقن) فلان من فلان من العلماء ثم أجازه فى (تلقينه) ومن منظور محمد عابد الجابرى ارتبط العقل العربى

ارتباطا ملزما بالنص شرحا وتفسيرا لغويا وفقهيا وفلسفيا وأداته فى الفكر فى فهم المواقف الجديدة والحكم عليها من خلال المنطق القياسى فى قياس الغائب على الشاهد(*) ومن خلال تلك النصوص باعتبارها الرصيد الثقافى المتاح يدور الخلاف والصدام فى التفسير والدلالة والمغزى فى توجهات المعرفة وأسلوب الحياة ومن ثم يحتل النص موقع السلطة التى يمكن أن توظفه فيما يحلوا لها من دعم أو تبرير لمصالحها السياسية أو فى دحض وتفنيد ما يعتنقه فريق الخصوم . وهكذا دواليك فى استخدام سلطة النصوص لتملك القوة والنفوذ والسلطان ،وتداولها بين مختلف الفرقان من قوى المجتمع المتصارعة ظاهرا أو مضمرا .

وقد بلغت تلك الأيديولوجية الكُتَّابية فى العقود الثلاثة الماضية شأوا فادحا حين أدعى أصحابها امتلاك الحقائق القطعية المطلقة ، وأنها المرجع الموسوعى الشامل مما أدى بدعاتها إلى التدخل فى إصدار الأحكام المرتبطة بقضايا الهندسة الوراثية والتشريح والتجارب العلمية وإلغاء مقررات دراسية أو الحكم على فسادها فضلا عن التدخل فى قضايا المجتمع والاقتصاد والمال وقد نجم عن ذلك أيضا الاتساع فى مساحات المقدسات والأوامر والنواهى التى لم يرد بها نص دينى قطعى بدعوى درء الشبهات وسد الذرائع .

ويتم تطبيق تلك الأحكام اعتمادا على النص والسوابق دون التفات إلى سياقاتها التاريخية والاجتماعية ودون ادراك لواقع الحاضر ومتغيراتها فى علاقتها بالماضى بالمستقبل ومن ثم تغدو أشبه بمعرفة ميتافيزيقية منبته عن حركة التاريخ وأحداث المكان ومما يستحق الملاحظة هنا ارتباط أيديولوجية الكُتَّاب بقضية المرأة وما يجرى حول تلك القضية من تباين فى طبيعة المرأة ودورها ومكانتها وحقوقها وعملها .

وكما هو معروف فقد تولد عن أيديولوجية الكُتَّاب فى مواجهتها لقوى التغير الحديث وامتزاجه بنتاج الحضارات الصناعية حشد هائل من الثنائيات بين القديم والحديث والأصالة والمعاصرة بين الموروث والوافد وبين التأصيل والتغريب وبين العقل والنقل والإبداع والاتباع وبين الدين والعلم وبين المؤمنين والعلمانيين وبين نحن وهم

(*) انظر محمد عابد الجابرى في كتابه نقد العقل الغربى .

وبين الرجل والمرأة وبين الهوية والعولمة . . ولا نريد أن نخوض هنا فى نقد كل من الطرفين اذ أن فى دعاوى كل منهما كثيرا أو قليلا نقلا عن الخارج سواء كان الخارج زمانا أم مكانا أو أن كلا منهما قد يكون رد فعل لأزمات الواقع المعيشى أو أن أحدهما ينظر إلى الوراء وما سلف والآخر يقفز إلى الأمام والفوق متجاوزين تضاريس المعطيات الراهنة وتشكيلاتها .

وقد أدى هذا إلى استقطابات وخصومات معرفية وسياسية واجتماعية كما نجم عن جهود الطرفين فى كثير من الحالات توجيه سهام النقد والتعصب نحو تلك القوى الخارجية واتهامها باستغلالها وهيمنتها على ديارنا وتدمير قواها الداخلية وجاء الانصراف نحو ذم تلك القوى – وإغفال ما نمارسه فعلا على مقدرات الوطن – نوعا من الهرب من الواقع الغليانى وتفريغ شحنة العجز وإسقاطها على الغير بديلا عن تنمية القدرات الذاتية على فهم الواقع الحى وعلى الفعل الإيجابى فى مواجهة المشكلات والتحديات الخارجية وما يتطلبه ذلك من إبداع فكرى مجتمعى أصيل معاصر ومعاصر أصيل وجعلنا ذلك فى حيرة وتشكك من المنجزات الحضارية ومن أجل توظيف كل ما هو إنجاز عالمى إنسانى لإعادة صياغة كل ما هو ضعف وتخلف محلى وقد تولد عن ذلك جملة من اشكالياتنا وأزماتنا الثقافية والتى انعكست فى تعليمنا نتيجة وسببا ونتذكر هنا قول المعرى :

فى كل جيل أكاذيب يدين بها

فما تفرد يوما بالهدى جيل

وليس من التجنى استنكارنا القائلين بعودة الكُتَّاب اتهامهم بأن يتم فى نظام تعليمنا الحالى بأنه تغريب وأنه افتقد روح الكُتَّاب والجامع الأزهر فى صورته القديمة من حيث عدم الاهتمام بتحفيظ القرآن والتعليم الدينى ، وعدم اعتبار ذلك من بين المواد الامتحانية نجاحا ورسوبا وأن درجة اللغة العربية فى الثانوية العامة تزيد قليلا عن درجة اللغة الأجنبية ، وما أكثر من يشكو منهم بأن النحو والصرف لا يتم تقديرهما العادل فى درجات امتحان اللغة العربية ، هذا فضلا عن الادعاء العام بأن تعليمنا الحالى يهدر مقومات هويتنا بعدم الاهتمام بدراسة التراث من تاريخ وأدب وكأنما مقومات الثقافة

والهوية مع أهمية تلك المواد قد اختزلت فى حدودها دون إيلاء المقررات الأخرى ما تستحقه فى مصفوفة أوزان النسبية للمناهج الدراسية وهذه عملية فنية متخصصة لها أسسها وقواعدها .

لقد كان للكُتَّاب دوره مع النسق التعليمى فى السياق المجتمعى قبل أن يدخل محمد علي نظام التعليم الحديث كقوة من القوى التى اعتمد عليها فى بناء دولته وقوة جيشه ومنذ ذلك التاريخ ظل الانشطار التعليمى والثقافى بين ما يسمى بالتعليم الدينى والتعليم الحديث ساحة للصراع السياسي والمناظرة الثقافية وللمصالح الطبقية والفئوية وحتى محاولات الإصلاح التى جرت فى التعليم الدينى نفسه لم تخل من مد وجزر ومن شد وجذب بين القديم والجديد ، ويكفينا هنا أن نعرض لهذه القضايا النظرية من أجل أن نلفت أنظار دارسى التاريخ إلى أهمية مفاهيمها فى دراسة أحداث التاريخ وعواملها ومسبباتها واحتمالات اليقين القطعية فى تشخيصها وتقييمها وبخاصة ونحن نعالج موضوع الكُتَّاب والتعليم العصرى وتلك من مهمات أساطين المؤرخين فى جامعاتنا .

الكُتَّاب فى زمانه

وعود إلى قضية الكتاتيب بإعتبارها مؤسسة تاريخية من ناحية وبإعتبارها نموذجا إرشاديا (براديم) أو أيديولوجية لمنهج معين فى التعليم تظهر فى سياق جديد من ثم يجدر بنا أن نستكشف أبعاده وما يركز عليه من أهداف ومضامين فى مواجهة نموذج التعليم العصرى وتوجهاته ، ولما كان النسق التعليمى ومؤسساته أسيرا للزمان والمكان فعلينا أن نتذكر أن التعليم فى مصر لم يشهد حتى مطالع القرن التاسع عشر إلا تعليما دينيا لغويا كما مارسته مؤسسات الكتاتيب والجامع الأزهر والمدارس الفقهية فى الجوامع الكبرى ومع الاعتراف بدور الكُتَّاب التعليمى فى هذه المنظومة فى القرون السابقة ، فمن المفيد الإشارة إلى أن ذلك النوع من التعليم لن يتناول تكوين المهارات الحياتية أو الإعداد للعمل مما كان مجاله الممارسة العملية أو ما كان يقع فى نطاق الطوائف المهنية ، وقد أكد ابن تيميه مفهومه للتعليم بأنه من يتقن صنعة من الصنائع ولعلنا نذكر أن خريج الكُتَّاب والأزهر كان وما يزال يعرف باسم (الشيخ) وما يزال صاحب الصنعة يعرف باسم المعلم لما يتميز به من حذق ودراية عملية ومن ثم انفصل تعليم الشيخ (الفقيه) عن (المعَلِّم) والحرفى وكان لكل منهما مؤسسته الخاصة .

وحين نتحدث عن الكُتَّاب كمؤسسة قبل نشأة نظام التعليم الحديث فى أوائل عصر محمد علي ، لا مندوحة لنا من الإشارة إلى وظيفته الدينية فى مجتمع ليس فيه من تيارات الحركة أكثر من إقرار مجتمع الكفاف باقتصادياته وتبادلاته العينية وقيم شرائحه بالطاعة للخلافة أو السلطان أو الوالى وغلبة مكونات ثقافية مغلقة أقرب ما تكون إلى القدرية والاستسلام لقوى غيبية أسطورية أحياناً وخرافية أحيانا أخرى .

عبد المنعم سعيد علي*

العلاقة مع الغرب بين نظرية المؤامرة والتحدى الحضاري

مشهد المؤامرة

هذه المحاضرة جزء لا يتجزأ من المؤامرة الكونية والغربية على الذات العربية والعفة الإسلامية ، فما الذى يدفع دار الكتب والوثائق القومية لدعوة شخص مثلى لإلقاء محاضرة فى هذا الوقت بالذات الذى يجرى فيه حصار العراق ويتم فيه ضرب لبنان ، فهل هى من قبيل الصدفة وقوع هذه الأحداث فى وقت واحد اللهم إلا إذا كان المطلوب هو تقويض الداخل العربي والصمود الإسلامي فى الوقت الذى يجرى فيه الضرب من الخارج ، وما الذى يجعل مؤرخا مرموقا مثل د . يونان لبيب رزق يدعو د . عبد المنعم سعيد علي ، لإلقاء هذه المحاضرة وما الذى يجعل مؤرخا مقدرا وتقدميا مثل د . رءوف عباس لتشريفه بإدارة المحاضرة فى هذا الوقت الحساس الذى تهيمن فيه أمريكا على العالم وجعلت بورصتها تنهار ؛ كذلك البورصة المصرية وراءها وبالتالي تتمكن أمريكا والغرب من فرض الهيمنة على اقتصادنا ، خاصة بعد زيارة كوهين اليهودي وزير الدفاع الأمريكي الذى باع فيها لنا السلاح بالمليارات من الدولارات حتى يحقق إفلاسنا ويحرمنا من استخدام سلاح البترول . هل كان حدوث كل ذلك من قبيل الصدفة ، أم أن وراءها مؤامرة إمبريالية محكمة ، خاصة وأن المحاضر تعلم فى الولايات المتحدة ، وزار هولندا عضو حلف الأطلنطي مؤخرا لحضور ندوة ، كما أنه عضو فى جمعية القاهرة للسلام ، وأصدر تقرير المركز الإستراتيجي العربي الذى يدعو العرب للتعامل مع العولمة التى هى الواجهة الجديدة للاستعمار الجديد جدا .

أرجو ألا يندهش أحد إذا ما قرأ غدا عن هذه المؤامرة الجديدة فى الصحف والمجلات ، فبهذه الطريقة يتم تحليل كل الأحداث فى حياتنا . الهامة وغير الهامة ، الخطيرة وغير الخطيرة ، الجادة وغير الجادة ، العادية وغير العادية .

---

* مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، دكتوراه فى العلوم السياسية من الولايات المتحدة الأمريكية ، له عديد من المؤلفات وعشرات من المقالات حول علاقة العرب الإقليمية والدولية والصراع العربى الإسرائيلى .

وفى الحقيقة نحن لدينا ثلاثة أنواع من المؤامرات ذائعة فى خطابنا السياسى أو على الأقل فى جزء مهم من خطابنا السياسى ، فهناك :

أولا : مؤامرة الأحداث اليومية

فهناك ما سمعناه عن مؤامرة عندما كانت هناك سحابة سوداء فوق القاهرة ، لو قرأنا الخبر نجد نفس العناصر ، لماذا تحدث السحابة السوداء الآن : هل هى مصادفة أن يتم ذلك قبل زيارة عمرو موسى لأمريكا؟ هل هى محاولة للضغط على مصر لاتخاذ قضايا معينة؟

طبعا كلنا نذكر حادث الطائرة ٩٩٠ ، الطائرة المصرية التى سقطت وكيف أيضًا تم الحديث عن أن هذه الطائرة أسقطت مرة بموجات مغناطيسية ، ومرة أشعة كونية ومرة نتيجة جهاز الدفاع الأمريكى . . . إلخ .

ثانيا : المؤامرات الكبرى

هذه المؤامرات الكبرى عادة تحدث علي الأمة العربية الإسلامية ـ على وجه التحديد ـ فى العالم ؛ فهناك مثلا موضوع الغزو العراقى للكويت يعتبر مؤامرة ، البوسنة أعتبرت مؤامرة ، كوسوفو أعتبرت مؤامرة ، احتلال جزر حنيش من أريتريا أعتبرت مؤامرة ، الأزمة التركية السورية أعتبرت مؤامرة ، التحالف الأمريكى الأوغندى مع الكونغو الديمقراطية مع أريتريا ، وأثيوبيا وجنوب السودان لحصار مصر وإغلاق البحر الأحمر وإغلاق أفريقيا أمام مصر ، هذه كلها مؤامرات كبرى تخصنا نحن بالذات من دون كل أمم العالم ، بهدف حرماننا من الثروات ، فتحتلنا وتسيطر على إرادتنا .

ثالثا : المؤامرات العظمى

المؤامرات العظمى كونية بطبيعتها وهدفها هو القضاء على الإسلام والمسلمين وبالطبع هذا داخل فى موضوع صراع الحضارات ، ومنها أيضًا موضوع القضاء على آسيا ، لأنها يمكن أن تكون قطبا عالميا مناوًا للولايات المتحدة وبالتالى الانهيار الاقتصادى الذى حدث في آسيا اعتبر أيضًا مؤامرة ، هناك مؤامرة لتدمير روسيا ، كل هذه المؤامرات العظمى تتحدث ليس عن الهيمنة بالذات على الأمة العربية والإسلامية إنما الهيمنة على العالم كله .

خصائص المؤامرة :

هذه المؤامرات فى خطابنا السياسى أو بعض خطابنا السياسى لها خصائص معينة :

الأولى : هي أن المؤامرة وعكسها أيضًا مؤامرة بمعنى إذا أخذنا مثلا موضوع الغزو العراقى للكويت وضرب العراق بعد ذلك ، كانت هناك مؤامرة تقول مما يلى : أن القوة العراقية تصاعدت للغاية وأنه تكونت أسلحة كثيرة فى العراق ، مما بدى أنه سوف يهدد الغرب ويهدد إسرائيل ، ويهدد هذا ذلك فى المنطقة وهنا تقرر ضربها ، لكن هناك مؤامرة مضادة ، المنطق المعكوس بيقول أنه جرى الاتفاق مع صدام حسين أن يغزو الكويت وبعد غزو الكويت يتم ضربه وبالتالى تأتى الأساطيل الأمريكية وتستنزف دول الخليج وتأخذ ثروتها وطاقتها ، وبالتالى المؤامرة وعكسها فى نفس الوقت أيضًا مؤامرة أخرى .

الثانية : أن المؤامرة مستمرة مهما كانت تبدو أنها تتناقض مع الوقائع ، بمعنى إذا أخذنا مثلا حادث الطائرة ٩٩٠ المصرية التي سقطت عند نيويورك ، إذا نظرنا للوقائع لماذا؟ أو ما هى المصلحة الأمريكية لضرب طائرة مدنية إذا كان غالبية الركاب أمريكان بل ومنهم يهود ؛ قيل لأن عليها عسكريين مهمين لكن لو عرفنا أن كل طائرة آتية من الولايات المتحدة تحمل عسكريين مصريين وأيضًا مهمين!! .

مهما كانت الوقائع المحددة ، لماذا أمريكا وهى تعطى لمصر معونة سنوية تدمر لها أحد طائراتها ، هل هذه هى الطريقة الوحيدة؟ ، أيضًا لو كانت الوقائع تقول أن أمريكا لأسباب تتعلق بمصالحها ساهمت فى إنقاذ مسلمين فى الكويت وفى البوسنة وفى كوسوفو الوقائع المحددة فى نهاية هذه الحوادث ؛ تم إنقاذ مسلمين من مذابح من ظروف ضاغطة عليهم ، ومع ذلك فإن حديث المؤامرة يستمر .

الثالثة : المؤامرة أيضًا لا تنتهى حتى ولو لم تثبت ، أى هناك مؤامرات أذكر فيها المؤامرة الخاصة باحتلال أريتريا لجزر حنيش قيل أنها المؤامرة الدولية ، ودفع أريتريا لاحتلال جزر حنيش لإغلاق مضيق باب المندب وبالتالى خنق مصر من ناحية (الجنوب) ما حدث فعلا هو أن أريتريا دخلت فى مفاوضات مع اليمن وبعد ذلك عرض الموضوع على التحكيم وقبله الطرفين ، وانسحبت أريتريا من جزر حنيش ، وبعد ذلك

رغم أن المؤامرة المفروض أنها لم تثبت وإلا لو كانت كأنها مستمرة ، إنما يجرى التربص بكل ما يمكن أن تفعله أريتريا ليقال مرة أخرى نفس الموضوع حول أنها أداة فى يد هذا وذاك .

أيضًا عندنا مؤامرة لو رجعنا للصحف فى وقت من الأوقات أيام ماكابيلا فاز فى التمرد الخاص بكابيلا فى الكونغو الديمقراطية ، قيل أن فيه مخطط من الكونغو الديمقراطية ـ أوغندا ـ أريتريا ، أثيوبيا لحصار من الجنوب ، وأيضًا مع التمرد الموجود فى جنوب السودان طبعا بعد برهة وجدنا أريتريا وأثيوبيا دخلوا فى حرب مع بعضهم البعض ، الكونغو الديمقراطية مع أوغندا بمعنى أنه حدثت تناقضات بينت أن هذه المؤامرة لو كانت موجودة فى الحقيقة تبقى هشة للغاية .

الرابعة : المؤامرة مستمرة منذ فجر التاريخ والحروب الصليبية شاهد ، فإننا لو كان عندنا إعادة إنتاج مستمر لفكرة المؤامرة بمعنى الذى حدث فى الحروب الصليبية هو الذى حدث فى فترة الاستعمار هو الذى يحدث الآن ، بمعنى آخر أن التاريخ فيه قدر من الصيرورة والاستدامة وعدم القدرة على التغيير ، وإننا باستمرار نعيد إنتاج مؤامرة صممت تقريبا منذ آلاف السنين لحرمنا من المكانة . . لحرمنا من الثروات . . . إلخ .

الخامسة : المؤامرة ذات مكاييل متعددة ، بمعنى أننا باستمرار نتحدث عن ازدواج المعايير لدى الغرب . . . إلخ . وهو كلام فيه قدر من الصحة ، وأيضًا حديث المؤامرة فيه ازدوجيات كثيرة للمعايير ، بمعنى أن لو شعب أو أقلية إسلامية فى بلد من البلاد نحن نتحدث باستمرار لكبح المسلمين على وجه التحديد ، ويبقى مطلبنا هو حق تقرير المصير له ، إنما لو كانت المسألة العكس بمعنى أنها أقليات أخرى لدينا نعتبرها مؤامرة لتفتيت الدولة العربية ، يعنى لو التمرد هو الأقلية الكردية تبقى المؤامرة هى تفتيت دولة العراق ، ولو كانت المؤامرة هى على الشيشان تبقى هى لكبح المسلمين لا نتعامل معها!! كأنها مشاكل أقليات على مستوى العالم وإنما نتعامل معها وفق معايير مزدوجة ومكاييل متعددة .

السادسة : المؤامرة تحدث إذا تدخل الغرب أو لم يتدخل ، وأدعوكم لقراءة تحليل مضمون الصحافة المصرية والعربية فى حوادث كوسوفو والبوسنة والشيشان ، فى حوادث البوسنة كان أول ما يقال أن فيه مؤامرة لتهجير المسلمين من أوربا كلها حتى لا توجد بلد

إسلامى فى أوربا كلها وحصل لوم كبير جدًا للغرب أنه لم يتدخل ، وكيف يتركوا المذابح التى تحدث ، وعندما تدخل الغرب بالفعل قيل قصده الهيمنة وضرب صربيا والاعتداء على السيادة . . . إلخ . بمعنى أن الحجة ومقابلها إذا تدخل الغرب يلام وإذا لم يتدخل أيضًا يلام!! .

السابعة : روسيا موضوع للمؤامرة وشريك فيها ، بمعنى أن أحد توابع قضية كوسوفو كان لتحجيم روسيا ، لماذا تحجيم روسيا ؛ لأن روسيا يمكن أن تكون القطب الدولى المعارض للقطب الغربي .

عندما جاء الأمر على الشيشان نسينا موضوع أن روسيا يمكن أن تكون قطبًا مناوًا للغرب ، وأصبحت القضية هى قضية الشيشان حتى لو أدت إلى تفتيت روسيا وإضعافها .

تشريح المؤامرة :

هذه الخصائص المجتمعة للمؤامرة تأخذنا إلى تشريح للمؤامرة ، فى كل هذه المؤامرات تتجمع أربعة عناصر رئيسية :

أولها : أن هناك خطة متكاملة رسمتها القوى العظمى لرسم تاريخنا المعاصر وما نشاهده كل يوم هو تفاصيلها .

ثانيها : أن القوى صاحبة هذه الخطة العظمى كانت بريطانيا وفرنسا والآن هى أمريكا وتابعتها إسرائيل .

ثالثها : أن الخطط المفصلة لهذه القوى الجهنمية لا تترك لنا أى مجال للمناورة ولا يوجد لدينا أية خيارات فى التعامل معها .

رابعها : وطبقا لذلك فإننا لا نتحمل أي قدر من المسئولية لما حدث فى الماضي وما يحدث الآن ، وحتى ما سيحدث فى المستقبل ، فكل ما كان وسيكون مقرر فى الخطة العظمى ، ومن ثم وهذه النتيجة فإنه ليس أمامنا ، إلا الصدام مع الغرب بالانتحار أو الاستسلام .

الشيء الغريب فى هذا الحديث الخاص بالمؤامرة أنه يجمع قوى سياسية متعددة ، وفى جوهرها فلسفيا وفكريا متناقضة ؛ يوجد فيها كثير من الإسلاميين أو المتأسلمين مثل أصحاب الفكر الإسلامى ، وفى هذه الحالة تكون المؤامرة ضد الإسلام والمسلمين ،

وفيها بعض أنصار الفكر القومى ، وفى هذه الحالة تكون المؤامرة ضد العرب والعروبة والوحدة العربية ، وفيها أيضًا الكثير من أنصار الفكر الاشتراكى اليسارى ، والمؤامرة فى هذه المرة ضد العالم الثالث والفقراء ، هناك أيضًا المواطن العادى الذى يتسلل أو يواجه كل هذه المؤامرات ويبدأ فى التعامل معها بشكل أو بآخر .

أنى قصدت فى الحقيقة أبدأ هذا الحديث ربما بمثل هذا المدخل لأنه أريد أن أوضح منذ البداية أن هذا الحديث ليس كل الناس ، أو كل ما هو مكتوب ، إنما أريد أن أكد فى البداية أنه موجود لدى قطاع واسع جدًا من كتاباتنا ، ولا نتعامل فيه فقط مع القضايا الكبرى ، وإنما أيضًا مع القضايا الصغرى واليومية .

بمعنى إذا حدث حدث فى هذه القاعة نقول من هو المستفيد ، وإذا ثبت أن فيه أحد مستفيد فلابد أنه متآمر لحدوث الحدث ، وهذا ضد الفكر القضائى العادى ، فليس بالضرورة إذا استفاد طرف من خلافات طرفين أنه يصبح هو المدبر لهذه الخلافات .

أريد أيضًا أن أقول أننى لا استبعد فى هذه البداية فكرة أن يكون هناك لطرف من الأطراف ليس فقط مصلحة وإنما مخطط ما لتحقيق هذه المصلحة ، ولكن المخطط أيضًا جزء من العملية العقلانية للعلاقات بين الدول وبين الأمم وبين الحضارات .

وبالتالى أحب أن أحدد نقطة مبدئية فى هذا ، أننى لا أستبعد وجود أحيانا مؤامرة أن يحدث أحيانا تجسس ، وإنما فى حركة التاريخ الكبرى والأحداث التي تحددها ، وفى كل الأحوال هي الشعوب والأمم ذاتها بمواجهاتها لنفسها ومواجهاتها للخارج ، وبالتالى أنا لم أخف تحيزى الفكرى أن ما نتعامل معه هو فى الحقيقة تحدى حضارى أو تحدى علمى أو تحدى تكنولوجى ، سوف أتحدث بالتفصيل لأننى لست متخصصا فى كل هذه الجوانب وإنما أزعم أنه فى اللحظة التاريخية المعاصرة التي نعيشها الآن هناك تحديات كبرى نحن نواجهها ، ونبدأ بتوجيهها بأكثر من طريقة للتفكير .

منها طريقة فكر المؤامرة الذى قمت بشرح أجزائه ، إنما الأكثر خطورة لهذا الفكر ، أن يسلب منا أغلى ما نملك وهو قدرتنا على المواجهة ، لأنه إذا كنا نتعامل مع أمر سرى يجرى فى أضابير المخابرات المركزية الأمريكية أو بيجرى في أضابير الساسة وإلى آخره ، فنحن نتعامل مع قوى طبيعية غامضة مثل الزلازل لا أحد يستطيع أن يعرف متى

سيدمر البيوت .

الإنسان عندما عجز فى الماضى عن فهم قوى الطبيعة بدأ يخترع آلة ، ويخترع أشياء لكى يستطيع أن يجعل لها فهمًا عقلانيًا فى ذهنه ويستطيع أن يتعامل معها فكريا ، إن لم يكن يستطيع أن يتعامل معها ماديا .

فكر المؤامرة من هذه الطريقة أمامنا تحديات كبيرة جدًا ، ومع ذلك نتيجة ربما أنه فكر غير خلاق بما يكفى للتعامل معها ، فبالتالى نلجأ إلى هذه الوسيلة للتعامل مع هذا الموقف الجديد .

أريد أن أقول أننا فى مصر وفى المنطقة العربية أمام أربعة تحديات كبرى تأتينا الآن مما نسميه الغرب ، وأنا بدون الدخول فى التفاصيل - فى ظل وجود الكثير من أساتذتى الموجودين هنا والمثقفين والمؤرخين - من الممكن تتبع فكرة الغرب ، فكرة الغرب لم تكن واحدة طول التاريخ ، يعنى حتى ميلاد كلمة الغرب ، وهل الغرب الذى كان موجود عندما بدأ التفاعل اليونانى المصرى فى نهاية العصور الفرعونية هو ذات الوقت الذى نتعامل معه اليوم فى بداية القرن الواحد والعشرين مع ما يسمى بالغرب أو الولايات المتحدة وأوربا وامتداداتها فى استراليا أو فى نيوزيلندا . . . إلخ .

أنا أزعم أن فكرة الغرب بالنسبة لنا تغيرت على مجرى التاريخ ، وأزعم أيضًا أنه فى هذه اللحظة من التاريخ المعاصر بتشهد فكرة الغرب تغيرًا جوهريًا .

وربما هناك رأى يلخصها ملخص صحيح ، كان فى البداية ولكنه صالح تماما لعصرنا الحالى ، فى كتاب أفلاطون المشهور عن القوانين نجد فيه عبارات لطيفة جدا عن مصر ، هذا الكلام تقريبًا قبل الميلاد فى القرن الثالث .

قال أفلاطون أن دول الحضارات هى دول القوانين ، وكان مصر عمرها - فى ذلك الوقت - تقريبا ثلاث آلاف سنة ، وبالتالى اعتبرها أقدم الحضارات الإنسانية لأن لها قوانين محددة ، لكنه فى ذلك الوقت رأى أن القوانين المصرية كانت بالغة الجمود ، لأنه ما شغل فى الحقيقة أفلاطون فى كتابه القوانين ، هو كيف تستطيع الوحدة السياسية أن تتعامل مع فكرة التغيير ، وبالتالى رأى أن مصر تنحدر لأن قوانينها كانت جامدة ؛ نظام الكهنة ، والفرعون . . . إلخ ، وبالتالى رآها كانت بتواجه فكرة . . تآكل ، عدم القدرة على

التكيف مع عملية التغيير بعد ثلاث آلاف سنة من التواجد الحضارى والإنتاجى والعلمى .

فى المقابل هنا فى مصر بدأ التفاعل كبير جدًا بين التجار اليونانيين والعلماء ، حتى أن واحدا من الكهنة المصريين قال تعبير طريف جدًا وهو أن هؤلاء اليونانيون كالأطفال يسألون أسئلة كثيرة ، التعبير هنا أن الكاهن كان يعنى أن العالم يتحدث عن الفلسفة ، كانت اليونان بدأت تتقدم عنا فى الزراعة ، فى نظم الإدارة ، فى الفلسفة ، فى المنطق ، أما نحن كانت لدينا نصوص جاهزة موجودة فى الأغانى فى كتاب الموتى ، وعلى جدران المعابد ، وبالتالى كان هذا جوهر الفهم الحضارى للطرفين اليونانى والمصرى فى ذلك الوقت .

أزعم أننا نواجه مثل هذه المشكلة الآن ، إننا نتعامل مع الغرب لأنهم كالأطفال يسألون أسئلة كثيرة ويخترعون مخترعات كثيرة ويذيعون فى العالم أشياء كثيرة ، ونحن لم نستطع أن نفهم القصة بالضبط ، جزء منها على وجه التحديد موضوع الفجوة العلمية والتكنولوجية .

يوجد كثير جدا منا يتحدث عن الفجوة العلمية والتكنولوجية ، كتَّاب ، صحافيين . . . إلخ ، لكنى لست متأكدا من أننا نعلم ما معنى هذه الفجوة ليس فقط فى طبيعة المنتجات ، الانترنت ، سرعة الاتصال ، كثير جدا نجد من يقول لك كان من مائة سنة المعرفة العلمية تنتقل كل ٥٠ سنة وبعد ٢٠ سنة أصبحنا كذا ، وفى أول التسعينات كل خمس سنين ، آخر كلام كل ١٨ شهر ، نعلم أن هناك سرعة لتبدل المعرفة العلمية .

ولكن ما هو أخطر من سرعة تبدل المعرفة العلمية ومنتجاتها هى فى الحقيقة المؤسسات التى تفرزها وتتعامل معها ، ما معنى ذلك أنه داخل الجهاز التعليمي منذ سنوات كان القلم الحبر ، بعد كده عرفنا القلم الجاف ، هل هو بالضبط معناه الأدوات العلمية التي تتعامل معها مثل الكمبيوتر أبو ٨٠ ميجا أما الآن ٣ ، ٤ ، و ١٠ جيجا ، ما معنى هذا هل المادة التي نضعها بداخله ، ماذا بالضبط؟ ، فالمسألة هنا ليست الكمبيوتر أو الانترنت أو نظم المعلومات المختلفة ، ما معناها بالنسبة لمجتمع بعينه ، ما معناه حتى لشىء عظيم جدًا نتحدث فيه عن الثقافة والخصوصية . . . إلخ .

خطر فى ذهنى في زيارة مؤخرًا لهولندا ، هولندا بلاشك جزء من الغرب جزء من الحضارة الغربية ،لكن تمثلت هنا في هذا المجتمع الصغير تقريبا ١٦ مليون نسمة ، مساحته حوالى ٣٨ ألف كيلومتر مربع لكن صادراته تقدر بـ ٢٠٤ مليار دولار مقابل ١٣٤ مليار دولار لكل العالم العربى الذى يصل إلى ٢٨٠ مليون نسمة على مساحة تقريبا مساوية لمساحة الولايات المتحدة الأمريكية ، هل الناس هؤلاء فاقدين لخصوصيتهم ، وكيف تتعامل مع فكرة الاتصالات والعالم الموجود والأشياء التى مثل ذلك ، أن فكرة الخصوصية ليست شىء فى المتاحف وليست فى شىء نتحدث عنه ،لكن هذا شىء يتم معه عملية التنشئة المستمرة لشىء بسيط جدا اسمه هولندا ، يعنى فان جوخ بالنسبة للهولندى شىء أساسى فى حياته كرسامين أو موسيقيين ، والفكرة البروتستنية التي قامت عليها هولندا ، كل ذلك يحتل عشرات الأشياء التي تتحول إلى جزء من الحياة اليومية للناس ، كيف يتحول إلى C. D. ، إلى انترنت إلى أشياء مثل هذه ، إلى مكتبات عامة ، فنجد أن عدد المسجلين والمستعيرين بالفعل فى المكتبات العامة يقدر بـ ٤,٥ مليون نسمة من ١٦ مليون ، يعنى ممكن نتخيل فى ١٦ مليون أطفال وشيوخ ... إلخ تقريبا ، فإن حجم القوى الفاعلة فى المجتمع تتمثل فى الثقافة فى عصر هذه التكنولوجيا .

يمكنا الحديث عن الثقافة المتميزة والغزو الثقافى ، وهذا الحديث عن بعض عادات وتقاليد ، ومن أشياء فى المتاحف ، الأرابيسك فى المنزل ، أما ما معنى حقيقة الأرابيسك ، بداخلنا نحن غير موجود لأنه بالنسبة للهولندى له ثقافة معينة ،لما تنظر نجد فى الصور لديه فان جوخ ، أو غيره فى مفهوم للصالة ، مفهوم للمنزل ، مفهوم للمعمار قائمة على الفراغ ، قائمة على البساطة ، قائمة على التقشف .

أزعم أنه حتى فى عصر هذه الثورة التكنولوجية الكبيرة الثقافة والخصوصية مسألة موجودة وتتدعم ، بل أزعم فى الحقيقة أننا لو لاحظنا تاريخنا فى ٢٠٠ سنة الماضية مع كل تطور تكنولوجى ، نجد أن الثقافة تتدعم لاتنهار ، بمعنى أول ما عرفنا المطبعة كان قبلها معرفة الناس بما يسمى بالثقافة العربية الإسلامية ، كيف الناس تعرف القرآن وكيف تعرف الحديث ، وكيف تعرف التاريخ الإسلامى ، كان عدد الناس الذين يعرفون القراءة

والكتابة عدد صغير ، أو من المجاورين بالأزهر ، غير ذلك كان عامة الناس لا تعرف القراءة ، لا توجد مدارس ، لا يوجد تعليم لم تكن هناك كتب تطبع ، وبالتالى كانت فى الحقيقة معرفتها بالتاريخ معرفتها بالتقاليد معرفتها بالثقافة العامة غير موجودة ، لما جاءت المطبعة أصبحنا نطبع نسخ وبالتالى تعليم الناس فى المدارس ، فقرأوا هذه الأمثلة ، وقرأوا التاريخ ، وقرأوا سيف بن ذي يزن ، وقرأوا ألف ليلة وليلة ، وتعلموا الموجود فى هذا التراث .

الإذاعة خطت بهذا كله خطوات للأمام ، التليفزيون أعطانا خطوة للأمام ، والآن الانترنت ، يعنى ما أزعمه من كلمة التحدى العلمى والتكنولوجى هو فى جزء منه فى حقيقته تدعيمًا للثقافة الذاتية الموجودة فى المجتمع فى شكل حقيقى وليس بشكل رمزى أو بشكل سطحى . . . إلخ .

التحدى العلمي والتكنولوجى أيضًا تحدى إنتاجى بمعنى أننا اليوم نتحدث عن العلم والتكنولوجية كمسألة أساسية ، نتحدث عن الثورة الصناعية الثالثة .

الثورة الصناعية الثالثة لو نظرنا إليها واحدة واحدة نجد فى أشياء موجودة من فترة زمنية طويلة ، الكمبيوتر منذ عام ١٩٤٢ ، الهندسة الوراثية موجودة من بداية القرن ، التليفزيون موجود من الثلاثينيات ، إنما المسألة أن هذه الأشياء وصلت إلى درجة من التركيب والتعقيد الذى دخل فى العملية الإنتاجية .

التحدى الحقيقى ليس فقط فى زيادة عدد ـ على سبيل المثال ـ الذين يتعلمون على الكمبيوتر أو يستخدمون الانترنت ، هذا تحدى جوهرى نسميه تحدى حضارى . . .إلخ . أنا أتحدث من منطلق أننى كأحد دارسى العلاقات الدولية .

فالفجوة العلمية والتكنولوجية ليست فقط فى شكلها الحاد الذي عرفناه «المادة» ، وإنما فى تمثلها حضاريا بحضارتنا نحن وليست حضارتهم هم ، بمعنى السمات التي تميزنا كمصريين أو كعرب . . . إلخ ، وأيضًا تمثلها بالمعنى الإنتاجى ، هذا هو التحدى الكبير ، فليس التحدى فقط هو فى حصولنا عليها .

التحدى الآخر الذى يواجهنا ما يسمى «بتحدى العولمة» ، والحقيقة موضوع العولمة

أخذ نقاشا كثيرًا جدا فى مصر ، وسيسأل فيه أسئلة كثيرة ـ فأنا من الناس الذين تستدعى طبيعة عملهم سفرًا كثيرًا ، ولم أسمع فى العالم كله ما يثار من الأسئلة هنا ، ففكرة تقبل العولمة ، أو رفضها ، مفيدة أم لا هذه الأسئلة لا تطرح لأن العولمة بالنسبة للعالم كله أشبه ـ كما لو كنا نحن جميعًا جالسين الآن فى هذه القاعة وفجأة بعد أن كانت درجة الحرارة ٢٩ درجة مئوية أصبحت لسبب ما حدث ٣٩ درجة مئوية ، أى زادت عشر درجات ، فلو أصبحت ٣٠ أو ٣١ أو ٣٢ درجة يمكن القول أن ذلك عطل لا يوجب القلق ، ولكن تصل إلى ٣٩ فعلى هذا المجتمع الموجود هنا أن يتخذ قراره ، هل نلقى المحاضرة ونخرج ، أم نفتح النوافذ ، أو نشغل جهاز التكييف بمعنى آخر ، أنه على المجتمع الموجود فى هذه القاعة أن يتخذ قرارًا بالتعامل مع ارتفاع درجة الحرارة ، فمن السهل جدًا أحدًا يقول أن ارتفاع درجة الحرارة غير حسن ، أو ربما وراءها مؤامرة تدبر فى الخارج لإفشال هذه المحاضرة بشكل أو بآخر ، الكلام هذا ليس فى الموضوع ، الموضوع هو كيف نتعامل مع مجتمع تجمع فى هذه اللحظة لمدة ساعة أو اثنين مع حقيقة ارتفاع الحرارة .

العولمة بهذا المعنى جزء منها مرتبط بالثورة الاتصالية الموجودة ، ومرتبطة بالتغيير الموجود فى طبيعة السوق العالمية ، وارتباطها ببعضها البعض أردنا أو لم نرد أحدث بالفعل فى العالم اليوم مزيدًا من الاندماج فى السوق العالمية عبر مؤسسات موجودة ، بمعنى أنه عندنا ما تسمى منظمة التجارة الدولية مهمتها السعى إلى التخفيض التدريجى للحواجز الجمركية المناسبة وليس الوصول إلى الصفر ، إنما تخفيض تدريجى ما بين الدول ، وبالتالى تخلق سوق عالمية فى شبكات ، فعندنا فى العالم أسمها أسواق المال ، مثل سوق مال نيويورك أو طوكيو . . . إلخ . تهز أسعار كثيرة جدًا من السلع وهناك منظمة الطاقة العالمية وهى مجموعة مؤسسات فى مجموعة الدول السبعة ، أصبحوا الآن ثمانية بعد البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ، إذن فهناك شبكات مؤسسية على مستوى العالم ككل .

هناك أيضًا مسألة المصنع العالمى ، بمعنى أن أى منتج اليوم لا نستطيع أن نقول أنه منتج فى بلد واحدة «السيارة ، الميكرفون ، الأجزاء الموجوة فى هذه القاعة لو علمنا كام

دولة داخلة فى هذه القاعة لأصبحنا مندهشين ، فمثلا لو نظرنا للكاميرا الموجودة فى القاعة فى الأغلب ستكون سونى Sony ، والكشاف سنجده من شركة أخرى أو بلد آخر ، الريكوردر ، الساعات . . . أى هناك مجمع للعلاقات الدولية موجود فى هذه القاعة ، وإذا دخلنا فى كل جزئية من هذه الجزئيات فذلك يسمونه المصنع العالمى ، السيارة الموجودة فى الشارع اليوم فيها تقريبا عشرين أو ثلاثين دولة مشاركة ، التي صنعت السير ، والصامولة . . .إلخ . يتم تجميعها والتكامل بينها على المستوى العالمى .

إذن عندنا أسواق المال والمصنع العالمى ، والشبكات الدولية الموجودة هذه تشكل لنا تحدى بمعنى كيف نتعامل معها كأى شىء فى الدنيا من الممكن أن يكون له إيجابيات وسلبيات ، فممكن تكون فرص وممكن تكون مخاطر مثل أى شىء فى الدنيا ، أو أى وضع ـ فعلى سبيل المثال ـ الطعام إذا زاد يصبح خطر ، وإذا قل خطر ، أما إذا تناول الإنسان القدر المضبوط أصبح مفيد .

ومرة أخرى القضية ليست العولمة أو ضد العولمة أو ما هو شكل العولمة ، أو العولمة سيئة ، وكيف أيضًا نتعامل معها ، لأننا بالفعل نتعامل معها كما أننا نتعامل مع أسواق مع شركات مع إجراءات وقرارات ليست داخلة لدينا ، ولكن موجودة على المستوى الدولى ليس معناها أحد يقول أفعل كذا «حريتى» فى الحقيقة تجاه هذه القرارات وتجاه التدخل فيها جزء منه دبلوماسية نشطة ، وجزء منه أيضًا تفرضه القاعدة الإنتاجية التى تتعامل مع هذا الموضوع .

فى هذا العالم الجديد الذى أتحدث عنه ونضعها بين قوسين «العالم الجديد» ليس معناها العالم الحسن ، العالم الجديد هنا معناها العالم المختلف عما عهدناه من قبل ، فى مصر هذه الأيام حديث كثير قوى ، دور مصر الإقليمى ، وماذا سيكون شكله بعد السلام وقبل السلام ، وهل دورنا سوف يزيد أم يقل؟ .

هل أندونيسيا تتحدث عن الدور الإقليمى ، هل سنغافورة تتحدث عن الدور الإقليمى ، هل أحد يستطيع القول عن دوره الإقليمى أعلى فى أوربا ، هل هولندا ولا إيطاليا؟ بمعنى فى وسط عالم يتكون من الشبكات والأسواق المتسعة فى الحقيقة ،

الدور يصبح فى شىء حسن ، فيقال أن الجماعة هذه متميزة بنسيج بسيارات بأفكار بمزيكا بثقافة . . . ولكن ثقافة تم طرحها علي العالم بشكل من الأشكال ، إذن فى الحديث هنا عن العولمة نسأل مرة ثانية بمدى ارتباطها بالتحدى الموجود لدينا ونتعامل معه فى العالم .

أيضًا تحدى ثالث وهذا موجود فى العالم ، فنحن إيذاء جدول أعمال موجود فى العالم ، أى جدول أعمال نابع من الثورة التكنولوجية ونابع من العولمة ، فيقال أن ثمة قضايا مرتبطة بهذا بمعنى أنه فى شىء اسمه «البيئة» فى شىء اسمه «الهجرة فى العالم» ، فى «الاقتصاد العالمى ككل» ، كقضية من الممكن القول ما هو جدول الأعمال الجديد على مستوى العالم ، يرتبط هذا بسؤال هام جدًا وهو كيف يقضى رؤساء الدول يومهم؟ ما الذى يفعلونه عندما يجتمعون مع بعضهم البعض؟ ففى الماضى عندما كان أى رئيس دولة جالس من باكر حتى المساء لأخذ قرار ما هو ذلك القرار ، لو الرئيس الأمريكى سيكون ما هو الوضع فى الاتحاد السوفيتى ، مدى زيادة أسلحته؟ ، والعكس صحيح المباحثات التى سوف تتم ، ما هى كيفية إتمامها؟ .

هناك تعبير اسمه «الجغرافيا السياسية» أى أن العالم مرتبط بوحدات اسمها الدول القومية كل وحدة لها مصالح ، تدخل مع بعضها البعض فى تحالفات تحاول أن توازن بعضها البعض ، هذه كانت الحقيقة الأساسية فى العلاقات الدولية حتى نهاية الثمانينات مع انهيار المعسكر الاشتراكى والاتحاد السوفيتى ، ومع العولمة ومع الثورة الصناعية والتكنولوجية ، أصبح هناك قائمة أعمال مختلفة ، فرئيس الجمهورية يستيقظ فيسأل عن التضخم وصل إلى أى حد ، البطالة زادت أم نقصت ، هناك تلوث فوق القاهرة أم لا؟ . . . إلخ .

وفى الواقع لو قررنا عمل إحصائية عن عدد القمم التى عقدت منذ عام ١٩٤٥ أو أثناء الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٩٠ ، سوف نجد قمة سوفيتية أمريكية «موضوع الحد من التسلح» . . قمة عربية ، موضوعات مختلفة على مستوى العالم ومرتبطة بموضوع الجغرافيا السياسية .

الآن بقى أن نتناول جدول أعمال ما أسميه «الجغرافيا الاقتصادية» وهذا تعبير اعترف أنه «قاصر» لأن كلمة اقتصادية ليست كافية ، لأن داخل فيها موضوعات مثل البيئة . . . إلخ .

هناك أيضًا تحدى ما يسمى «بتحدى التعامل مع السلام فى المنطقة» ، وأنا لا أقصد إطلاقا تفاصيل عملية السلام العربية الإسرائيلية أوالصراع العربى الإسرائيلى ، ولكن أنا من الذين يعتقدون بضرورة الجلاء الإسرائيلى الكامل عن الأراضى العربية المحتلة وإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشرقية ، أتحدث عن وضع يبدأ فيه تغيير فى المنطقة غير ما ظلت عليه طوال الخمسين سنة الماضية ، هذا الوضع ارتبط بمؤسسات معينة ، تلك المؤسسات الخاصة بعملية السلام ، مثل المفاوضات المتعددة الأطراف ، مبادرة برشلونة ، المؤتمر الاقتصادى ، وهذه مؤسسات أقيمت مع عملية السلام ؛ وتنقل فى الحقيقة عملية التغيرات الموجودة على مستوى العالم . . الموجودة على مستوى الغرب . . . وبالتالى بتخلق تحدى مهم وهو تحدى ذو صيغة جديدة ، الذى يمكن أن نطلق على مستوى المفهوم كلمة «التنافسية» ، بمعنى ما هى مقدار تنافسيتنا مع من يجاورنا فى المنطقة التى هى مسألة ضرورية لتنافسيتنا على مستوى العالم ، والتنافس «علمى وتكنولوجى ، وتعليمى واقتصادى» ، وهى معركة رهيبة بمعنى أننا ندرس الإمكانيات ، وهناك من يقول والصراع العربى الإسرائيلى ماذا سنعمل فيه؟ لا لأنه مازلنا على هامش العالم ، بمعنى أن كل هذه التحديات نجد لدينا القليل للغاية .

موضوع السلام فى الحقيقة ربما لا ينهى مشاكلنا وإنما يبدأ مشاكلنا ، وما نسميها من مشاكل هذه فهى تحديات نسميها واجبات علينا أن نواجهها ونواجهها بثقة بالنفس ، وليس بالهروب إلى موضوع المؤامرة ، لأن المؤامرة بكل صراحة هذه عمل المخابرات ، وليس عمل المفكرين ، عمل المؤامرة عمل الأجهزة التي تبحث عن من يتفق مع من ضد من ، إنما عمل المفكرين الحقيقى هو وضع هذه التحديات على قائمة أعمال المجتمع ، وتحتل الشغل الشاغل للمجتمع لكى يعبأ طاقاته للدفاع عنها ومواجهاتها ، حتى لا نصبح على هامش العالم ، لا نجلس خائفين على دورنا الإقليمى سوف يفقد أم لا؟ دورنا الإقليمى غير قابل للضياع ، بالعكس الفرص الموجودة للدور الإقليمى وما هو أكثر إذا نظرنا إلى إمكانياتنا فى إطار عالمى معاصر .

التحدى ربما الأخير الذى أحب أن أختم به المحاضرة هو المرتبط بتحدى الديمقراطية وحقوق الإنسان وهذا جزئيا موجود فى كل التحديات الأربعة التي ذكرتها ، هذا التحدى موجود داخل تحدى العلم والتكنولوجيا ، هذا التحدى موجود فى التحدى الذي ذكرته عن العولمة ، موجود فى جدول الأعمال العالمية المعاصرة ، موجود فى التغيرات الخاصة بالسلام في الشرق الأوسط .

أعتقد أيضًا أنه مفتاح بالغ الأهمية لكل مجابهة لهذه التحديات أن كل هذه التحديات قائمة في الحقيقة على إطلاق الطاقات الجبارة غير العادية للبشر والأفراد .

بمعنى العلم والتكنولوجيا نتحدث عن ثورة صناعية جديدة قائمة على المعرفة ؛ قائمة على العقل ، وهذا مورد ليس محدود ، الثورة الصناعية الأولى قامت على الحديد والصلب ، هناك كمية معروفة من الحديد فى العالم ، والفحم وهى موارد تنتهى ، الثورة الصناعية الثانية قامت على الأشياء الكيماوية واليورانيوم كل هذه الأشياء والطاقة محدودة فى العالم ، لأول مرة الإنسان يدخل فى ثورة تكنولوجية طاقتها هي السماء بمعنى الإمدادات الخاصة بها . . ليس هناك نهاية للعقل الإنسانى وقدرته على الإبداع .

المعرفة لا نهائية وبالتالى إطلاق طاقات هذا الفرد لا تتم من خلال تجمعات ، إنما تتم من خلال إتاحة للفرد صوتا وهذا جوهر الديمقراطية .

هذا التحدى أيضًا موجود فى فكرة العولمة ، ولكن نحن نحصرها فى جزئية صغيرة فنقول بيتحدثوا عن حقوق الإنسان ، أنا فى الحقيقة مندهش من هذا الموقف ، يريدون أن يصورونا أننا نحن ضد حقوق الإنسان ، ضد أن الإنسان لا يعذب ، ضد أى إنسان لا يحاكم محاكمة قانونية أمام قاضيه الطبيعى؟! .

لماذا هذا التناقض عند التحدث عن قضية معينة ، لكن علينا أن نجابهه كتحدى ، لأنه موجود لأننا موقعين على إتفاقيات خاصة بحقوق الإنسان والديمقراطية وموقعين على إتفاق برشلونة الذي فيه الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وعند لحظة معينة ستظهر مصداقية هذا المجتمع ، وهى ليست مرتبطة بمصداقية السلطة والحكومة ، وإنما مرتبطة لمصداقية المجتمع ككل ، وعلى وجه التحديد نخبته الفكرية والسياسية .

يعنى العالم من الممكن أن يعرف حكومات سلطاوية إنما الذى لا يعرفه ولا يستطيع التسامح معه عندما تكون النخب نفسها نخب غير ديمقراطية .

العالم كثيرا يتعجب ، عندنا فى مصر الناس جالسين كثير جدا فى الحكومة سواء محافظين أو وزراء . . . إلخ ، وتعجبى أنه لا يوجد جمعية أهلية عندنا هنا فى مصر أحد يمسكها ويتركها بعد فترة ، لا أحد متولى حزب ويتركه!! . هذا تحدى أيضًا ربما يكون هو الأساس الذى نطلق عليه طاقات الأمة من أجل التفكير في التعامل مع كل التحديات الأخرى(*) .

(*) قامت بتفريغ هذه المحاضرة من شريط الكاسيت السيدة/ مسئولة عطية .

أ .د . يونان لبيب رزق*

الأحزاب المصرية بين البرامج والزعامات الشخصية

عرفت مصر ثلاث تجارب حزبية ، ورغم اختلاف الظروف التى نشأت خلالها كل تجربة فإنه يجمعها عدد من السمات . .

التجربة الأولى التى بدأت عام ١٩٠٧ وانتهت (بشكل غير معلن) عام ١٩١٤ ، والتجربة الثانية امتدت بين قيام ثورة ١٩١٩ حتى ألغت ثورة يوليو الأحزاب القائمة عام ١٩٥٣ ، والتجربة الأخيرة التى نعيشها والتى قارب عمرها من ربع القرن .

وبينما قامت التجربة الأولى فى ظل الاحتلال البريطاني كقوة فعلية والسيادة العثمانية كسلطة قانونية ، فإذا التجربة الثانية قد اقتربت بقيام أكبر ثورة شعبية فى التاريخ المصري وعاشت فترة الكفاح الوطني ذي الطابع التفاوضي الساعي إلى تحقيق الجلاء عن مصر ، وهو ما لم تنجح فيه أبدا حتى توقفت ، إلى أن قامت التجربة الأخيرة على عهد الرئيس السادات حين تزوجت السلطة بالتجربة زواجا كاثوليكيا فقدت معه كثيرا من أسباب عذريتها .

وثمة ملاحظات عن (المشترك) بين التجارب الثلاث :

١ . فقد جمع بينها ظاهرة الحزب الكبير الذى يجاوره مجموعة من الأحزاب القزمية وصفت فى التجربة الأولى بالأحزاب الصغيرة ، وفى التجربة الثانية بأحزاب الأقلية ، وكانت فى التجربة الأخيرة أقرب إلى الأحزاب الديكورية . .

ففي التجربة الأولى كان هناك الحزب الوطني وإلى جواره مجموعة من الأحزاب الصغيرة أشهرها حزب الأمة وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وفى الثانية كان هناك الوفد وإلى جواره الأحرار الدستوريين والوطني والسعديين ، وفى الأخيرة الوطني الديمقراطي يقبع إلى جانبه الوفد والتجمع والعمل .

* أستاذ التاريخ الحديث بكلية البنات ـ جامعة عين شمس ، عضو المجلس الأعلى للثقافة . حاصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ١٩٩٦ ، وجائزة مبارك فى العلوم الاجتماعية ٢٠٠٤ ، له أربعة مؤلفات فى تاريخ الأحزاب المصرية .

٢ . جمع بين التجربتين الثانية والثالثة أن كلا منهما ورثت عن التجربة الأولى حزبه الكبير ، ففي خلال التجربة التى قامت بعد ثورة ١٩١٩ ظل الحزب الوطني عنصرا فاعلا فى أحداثها وهو ما يحدث فى التجربة الحالية من وجود الحزب الكبير فى التجربة السابقة الوفد ، باعتباره أكثر الأحزاب فاعلية بعد الوطني على الساحة .

٣ . غير أنه يبقى أبرز جوانب (المشترك) فى التجارب الثلاث ، ونعود ونكرر ، رغم الاختلاف الهائل فى الظروف بين أوائل القرن العشرين حين نشأت التجربة الأولى وأواخره حين ظهرت الثانية ، دور الزعامة الشخصية فى أحزاب كل منها الكبيرة والصغيرة . . وما صحب ذلك من شحوب البرامج ، وإن كانت قد اختلفت الأسباب بين التجربتين الأوليين والتجربة الأخيرة . .

ففي الأوليين كان الشغل الشاغل للعمل الحزبي فى مصر هو القضية الوطنية ممثلة فى السعي للتخلص من الاحتلال البريطاني ، ومن ثم فإن أهم ما كان يميز زعيما عن آخر إنما قدرته على التصدي للوجود البريطاني ، وبينما جسد مصطفى كامل هذه الحقيقة خلال التجربة الأولى فقد مثلها سعد زغلول خلال التجربة الثانية .

وتتعدد الشواهد على غلبة شخصية الزعيم على مبادئ الحزب خلال هاتين التجربتين على نحو لا لبس فيه :

- فالملاحظ إن بروز الزعامة خلال هاتين التجربتين كانت أسبق على قيام الحزب ، فقبل تأسيس الحزب الوطني على نحوه الهيكلي فى ديسمبر عام ١٩٠٧ كان مصطفى كامل شخصية معروفة ملء الأبصار والأسماع كما يقال . .
- فلم يكن قد تجاوز العشرين حين اشترك فى الجمعية المصرية التى أسسها لطيف باشا سليم عام ١٨٩٣ وأسماها الحزب الوطني وشارك فيها عدد من الرجال ، عبداللطيف الصوفانى ، محمود أنيس ، حسن عاصم ، حسن عبد الرازق ومحمد فريد ، وتتكررت نفس التجربة بعد عودته من جولة أوربية عام ١٨٩٦ لتشكيل جمعية سياسية سرية تحت نفس الاسم ضمت إلى جانبه كل من محمد فريد وأحمد لطفي السيد وآخرين .

ولما كانت الصحافة أهم أدوات الاتصال الجماهيري خلال تلك الفترة فقد كان

إصدار مصطفى كامل للواء فى أوائل يناير عام ١٩٠٠ خطوة واسعة نحو تأكيد جماهيريته إذ لم يمض وقت طويل حتى أصبحت أهم جرائد العصر فقد تراوح توزيعها بعد فترة قصيرة من ظهورها بين ١٣ ألف و ١٥ ألف نسخة بينما لم تكن الجريدة التالية لها مباشرة ، وهى المؤيد توزع أكثر من سبعة آلاف نسخة .

ولا شك أن المعارك السياسية التى خاضها مصطفى كامل وقتذاك كانت من أهم أسباب اتساع شعبيته . . كان منها المعركة ضد الوفاق الودي المعقود بين كل من بريطانيا وفرنسا فى أبريل عام ١٩٠٤ والتى وافقت الأخيرة بمقتضاه على ألا تبث العراقيل فى وجه الاحتلال البريطاني لمصر بكل ما عناه ذلك من فقدان الحركة الوطنية لسندها الدولي والذى كان يعتمد عليه مصطفى كامل كثيرا . . غير أن ذلك بدلا من أن يفت فى عضد الرجل دعاه إلى أن يهاجم حليفه القديم فرنسا ، ويسير قدما فى سياساته ضد الاحتلال .

تكرر ذلك مرة أخرى بعد أن أخذ الخلاف يدب بين مصطفى كامل وبين الخديوي عباس حلمي الثانى عام ١٩٠٥ ، حين أخذ الأخير يناصر الشيخ على يوسف والمؤيد على اللواء وصاحبها ، وكانت نقطة تحول فى تاريخ مصطفى كامل ، فقد كان المفهوم قبل ذلك أنه يعيش على مساعدة عباس وتأييده ، وكان معنى أن يتحدى سلطة قصر عابدين كبيرا ، فلم تعد العلاقة بعدئذ بين تابع ومتبوع ، وإنما اكتسبت قدرا من التكافؤ نرى أنها كانت من أهم أسباب اكتساب الزعيم الوطني الشاب كل هذه المكانة فى نفوس المصريين . .

عرف صيف العام التالي (١٩٠٦) حادثة دنشواى والموقف المتشدد الذى اتخذته اللواء من سلطات الاحتلال من جراء تلك الحادثة فى الداخل والخارج ، وقد نجح مصطفى كامل بلا شك من لفت الأنظار إلى الحادثة باعتبارها نموذجا لسياسات القمع الاحتلالية ، ووصل الأمر إلى أن نجح فى تحريك الرأي العام البريطاني على نحو بدا سواء فى مقالات الصحف أو أسئلة أعضاء مجلس العموم التى أخذت تنهال على المسئولين من رجال وزارة الخارجية مما كان له أبلغ الأثر على مكانة الزعيم المصري . زاد من هذه المكانة ما اعتقده المصريون من أن الحملة التى شنها مصطفى كامل واللواء على اللورد كرومر المعتمد البريطاني العتيد كانت من أهم الأسباب التى أطاحت بالرجل

بعد شهور قليلة (مايو ١٩٠٧) وهو اعتقاد غير صحيح ، لكنه على أي الأحوال رسخ كثيرا من مكانة مصطفى كامل ، وعلى أي الأحوال فكم من اعتقادات غير صحيحة تصنع ظواهر تاريخية .

ثم أن النصف الأول من نفس العام كان قد شهد الحادثة المعروفة بإسم حادثة طابا والتى نتجت عن احتلال قوة تركية لهذه البقعة الصغيرة الواقعة على رأس خليج العقبة ، والتى تطورت إلى أزمة ديبلوماسية عنيفة بين الحكومتين البريطانية والعثمانية انتهت بسحب حكومة استنبول لقوتها .

وعلى الرغم من أن مصطفى كامل قد ساند الجانب العثماني فى كتاباته فى اللواء خلال الفترة القصيرة التى استغرقتها الأزمة ، مما كان محل نقد من جانب عدد من الوطنيين المصريين ، غير أن حصاد الأزمة كان لصالحه ، فقد توقف الرجل عن البحث عن العون من جانب حكومة استنبول ، ولم يعد أمامه سوى أن يتوجه إلى الشعب المصري ، بعد أن كان قد سبق له التخلص من العون الفرنسي وتعضيد الخديوي .

كل ذلك جعل الرجل الزعيم المصري الأول الذى لا ينافسه آخر ، وقد حدث كل ذلك قبل ظهور الحزب الوطني إلى الوجود .وتتدافع هنا مجموعة من الملاحظات على تلك الزعامة التى صنعها الشاب الذى شكل أول الأحزاب الكبيرة فى تاريخ الحياة الحزبية المصرية :

- أنه قد نجح من خلال اللواء ، وطبعته الفرنسية (لتندار) والإنجليزية (الستندارد) اللتين ظهرتا عام ١٩٠٦ أن يشكل رأيا عاما مساندا قوى ، ومع أن خصوم الرجل فى ذلك الوقت أسموه هو وأنصاره بجماعة اللواء ، فهو قد أستخدم لتوصيف نفسه ورفاقه تسمية «الحزب الوطني» ، ولم يكن يقصد بذلك كيانا تنظيميا بقدر ما كان يقصد «جماعة الوطنيين» ، وهو المعنى الذى شاع خلال الفترة السابقة ، فقد أطلقت هذه التسمية على رياض وبعض رفاقه عندما ساعدوا فى إصدار جريدة المؤيد عام ١٨٨٩ ، كما أنها هى التى أطلقت على جماعة لطيف باشا سليم عام ١٨٩٣ ، ثم بعد ذلك على الجمعية السرية التى أنشئت بعد ثلاثة أعوام .
- أنه لم يكون ميالا إلى تحويل هذه الجماعة إلى كيان محدد ، فقد ارتأى أن تحويل

الحركة الوطنية التى يقودها إلى هيكل تنظيمي سوف يستتبعه أن تتمكن القوى المعادية لهذه الحركة وعلى رأسها الوجود الاحتلالى بالطبع ، توجيه ضربات مباشرة إلى الحزب ، بمعنى آخر أن الشكل الهلامي الذى التحف به مصطفى كامل وأنصاره كان يجعل الحركة الوطنية بالنسبة لخصومها شبحا هائلا غير محدد المعالم لا يمكن الإمساك أو البطش به .

بمعنى آخر أن الرجل قد اختزل فى شخصية «الحزب الوطني» والذى أرتآه «جماعة الوطنيين» ، وأن المؤمنين به وجموع أنصاره لم يروا بأسا فى ذلك ، وهو لم يقبل هيكله هذا الحزب إلا تحت ضغوط شديدة ، كان أظهرها تأسيس حزب الأعيان المعروف بحزب الأمة وتشكيل حزب موال للخديوي هو «حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية» ، وبدا وكأن الحزبين يسعيان لانتزاع عدد من أنصار اللواء للانضمام إلى صفوفهما .

يؤكد ذلك ما نلاحظه من أن «الحزب الوطني» كان آخر الأحزاب الكبيرة التى تم ظهورها على الساحة السياسية (ديسمبر عام ١٩٠٧) ، وأنه ظهر من خلال تظاهرة لمصطفى كامل قبل معرفة لبرنامج الحزب .

فبعد حملة طويلة شنها الرجل على صفحات اللواء سافر إلى الإسكندرية حيث ألقى خطبة من أشهر خطبه على مسرح زيزينيا فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧ ، تم تقدير عدد الحضور لسماعها بنحو سبعة آلاف شخص ، وهو عدد كبير جدا من الناس يقصدون إلى اجتماع سياسي فى ذلك العصر ، ووصف الأستاذ الرافعى هذه الخطبة بأنها «كانت أعظم خطبة ألقيت فى مصر والشرق منذ أقدم العصور» .

ويلفت النظر أن المصريين حفظوا من بعض الشعارات التى ألقاها مصطفى كامل فى هذه الخطبة .. مثل قوله «بلادي - بلادي لك حبي و فؤادي» ، وقوله «لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصريا» أكثر مما عرفوا برنامج الحزب أو مبادئه العشرة التى ألقيت فى هذه الليلة فى زيزينيا .

تجسد هذا البرنامج فى عشر مبادئ وكان مطلبا الاستقلال والدستور اللذان ضمنتهما المادتان الأولى والثانية أهم هذه المبادئ ، المادة الثالثة تضمنت التعهد

بضرورة احترام المعاهدات والاتفاقات الدولية والمالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية ، والرابعة بحق المواطنين فى «انتقاد الأعمال الضارة بكل صراحة» ، ثم مبادئ ثلاثة ذات طبيعة اجتماعية . . التشجيع على نشر التعليم ، وترقية الزراعة والصناعة والتجارة ، وأخيرا الاجتهاد فى تحسين الأحوال الصحية .

صحيح أن الحزب الوطني قد اختلف عن الحزبين الكبيرين الآخرين ، الأمة والإصلاح على المبادئ الدستورية ، بغلبة الجانب السياسي على برنامجه ، إلا أن الدارس لا يكاد يعثر على فروق جوهرية بين الأحزاب الثلاثة . . الفروق فقط كانت فى الزعامة . . مصطفى كامل بكل ما اكتسبه من أهمية خلال السنوات السابقة ، والذى يتضاءل إلى جواره كل من الشيخ على يوسف الذى عرفه المصريون صحفياً موالياً للخديوى أكثر مما عرفوه فى ميدان السياسة وأحمد لطفى السيد مفكرا داعيًا للوطنية المصرية أكثر مما كان له عندهم من سجل فى العمل السياسي .

ويلفت النظر فى التدليل على غلبة الزعامة الشخصية على البرامج خلال التجربة الحزبية الأولي أمران :

١ - بدء ظاهرة الاستخلاف التى عرفتها الأحزاب المصرية الكبيرة منذ ذلك الوقت المبكر ذلك أنه خلال مرض مصطفى كامل الأخير ، وقبل أن يلقى ربه فى فبراير عام ١٩٠٨ ، وبعد أن شعر بدنو أجله ، أوصى المحيطين به أن يكون محمد فريد خليفته فى رئاسة الحزب ، وهو ما كان قد مهد له بتعيينه وكيلا للحزب فى حياته ولم يترك الأمر كما هو مفترض للجنة الإدارية أو الجمعية العمومية ، وفقا لنجاح الخليفة فى تحقيق مبادئ الحزب .

٢ - ما أصاب الحزب الوطني ، رغم تمسكه بمبادئه العشرة بعد وفاة مؤسسه ، من ضعف نتج فى جانب منه عن الانشقاقات التى نتجت عن اختفاء المؤسس بشخصيته المؤثرة ، وفى الجانب الآخر عن تدخل أطراف السلطة الأخرى ، فى ضربه على نحو لم يكن مستطاعا فى حياة مصطفى كامل ، بصدور قانون المطبوعات عام ١٩٠٩ ، وبمصادرة صحفه ، وبحبس محمد فريد نفسه ، الأمر الذى ألجأ الرجل فى النهاية إلى الخروج من البلاد بقبوله بنوع من النفى الاختياري ، وهو ما لا نعتقد أنه كان

ممكنا فى عهد مؤسس الحزب .

٣ - إن الأحزاب ذات المبادئ المختلفة لم يكن لها وجود فعلى على الساحة وإن كان لها وجود أسمى ، منها الحزب الجمهوري الذى أسسه طالب فى مدرسة الحقوق أسمه محمد غانم ، والحزب الاشتراكي المبارك الذى سعى إلى إقامته الدكتور حسن جمال الدين ، والذى حاول نشر المبادئ الاشتراكية فى الريف المصري ولكن عبثاً .

****

وإذا كان زعيم الحزب الوطني قبل الحرب العالمية الأولى قد انفرد بالقمة ، مما أدى إلى غلبة شخصه على فكرة أن يكون لحزبه مبادئ يعتد بها ، فإن زعيم ثورة ١٩١٩ والوفد بعدها قد تجاوز ذلك كثيرا ووصل إلى حد الأسطورة مما كان له أثره العكسي على الحزب ، ومن ثم على اهتمام الناس أن يكون له برنامج أو لا يكون .

فقد أخرج الإنجليز سعد باشا زغلول من مصر إلى المنفى فى ٨ مارس عام ١٩١٩ وهو (مشروع زعيم) ، حيث بدت مخايل الزعامة على الرجل خلال الفترة السابقة على إعلان الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤ .. من خلال مواقفه من المستشار البريطاني لوزارة المعارف المصرية ، دوجلاس دنلوب ، أيام أن كان وزيرا لها (١٩٠٦-١٩٠٨) ، وفى حملته الانتخابية لنيل عضوية الجمعية التشريعية (١٩١٣) ، وأخيرا فى معركته من أجل تعيين وكيل الجمعية المنتخب ، وكان هو نفسه ، على وكيل الجمعية المعين (عدلي يكن) .

القبض على الرجل فى ذلك اليوم مما فجر الثورة المشهورة ، ثم نفيه إلى مالطة ، منها إلى باريس بعد الإفراج عنه لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح ، وهى المحاولة التى باءت بالفشل ، إلا أنه مكث فى أوروبا مع رجال الوفد المصري للدعاية للقضية المصرية لأكثر قليلا من عامين ، تتحول تلك الدعاية إلى مفاوضات مع حكومة لندن اضطرت الأخيرة إلى دخولها بعد مقاطعة المصريين للجنه ملنر .. كل ذلك حول مشروع الزعيم إلى (زعيم) وبدون منازع ، خاصة وأن محمد فريد الذى كان يمكن أن ينافس على الزعامة قد توفى خلال تلك الفترة (١٩١٩) .

تحول الزعيم إلى (أسطورة) نستطيع أن نلمسه بسهولة لدى عودة الرجل إلى أرض

الوطن بعد تلك الغيبة الطويلة ، مما نراه من الاستقبال غير المسبوق من جانب الشعب المصري والذى سجلت الأهرام تفاصيله الدقيقة .

ويكفى أن نطالع بعض ما جاء فى كتاب الأستاذ عباس العقاد «سعد زغلول - سيرة وتحية» ، فى الفصل الخاص عن شخصية الزعيم وأخلاقه ، لتبين رسوخ فكرة الأسطورة عند المصريين عن الزعيم الشهير . .

يقول فى أحد المواقع : «سعد زغلول قوة نفس وقوة بدن . من الزعماء الذين أثبتوا صدق القائلين أن متانة البنيان شرط لازم لمن ينهضون بقيادة الأمم ويضطلعون بأعباء السياسة . . تراه فترى من النظرة الأولى أنك على مقربة من رجل ممتاز فى الصورة كامتيازه فى الطبيعة ، وطلعته تذكرك على الفور طلعة الأسد فى بأسه ونبله وجلالة محياه ، وليس بين الوجوه الآدمية ما هو أشبه بالأسد فى قسماته ومهابته من وجه سعد زغلول» .

ويقول فى موقع آخر :«له قامة مديدة وجه أقرب إلى بياض ورأس مستطيل فى غير ضخامة وجبين يميل إلى السعة وينحدر قليلا إلى الأعلى ، وعينان ثاقبتان فيهما انحراف قليل نحو اللحاظ يطبقهما أحيانا عند الحماسة والغضب فلا تنفتحان إلا بمقدار ما ينطلق منهما الشعاع كأنه سهم نافذ أو إيحاء منوم جبار ، وله صدغان ناتئان وأذنان بسطاوان ، وأنف منفرج واسع المنخرين ، وفم أهرت الشدقين ، كما يصف العرب أفواه الخطباء المطبوعين ، وذقنه من تحت ذلك بارزة فى غير حدة ولا استعراض كثير ، تتمم ملامح البروز فى ذلك الوجه فيلوح للوهلة الأولى كأنه مفصل من زوايا حديد لا من اللحم والعظم» .

وتؤكد مسيرة زغلول خلال فترة ما بين تأليف الوفد (١٩١٨) وبين تشكيل الحزب (١٩٢٤) أن الرجل كان أسبق من الحزب . .

ونتوقف قليلا عند تشكيل الوفد الذى تم فى ٢٣ نوفمبر عام ١٩١٨ لأن القانون الذى وضعه مؤلفوه فى هذا اليوم ظل بمثابة برنامج الحزب الكبير لنحو ست سنوات ، وقد تضمن هذا القانون ست وعشرين مادة غلب عليها طابع التعميم . . المهمة : السعي بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجد للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما ،

مصدر الشرعية : أن الوفد يستمد قوته من رغبة أهالي مصر التى يعبرون عنها رأسا أو بواسطة مندوبيهم فى الهيئات النيابية ، ثم الاعتراف بأنه هيئة مؤقتة وليست دائمة ، فيما جاء فى مادته الثالثة بأن «يدوم هذا الوفد ما دام العمل الذى انتدب لأجله قائما وينفض بانفضاضه» ، أما بقية المواد الثلاثة والعشرين فقد كانت ذات طابع تنظيمي خاصة بالتمويل والدخول والخروج من الوفد وما إلى ذلك .

ارتبط بهذا القانون التوكيل الذى وضعه أعضاء الوفد والذى وقعه ألوف المصريين ، وكان نصه : «نحن الموقعين على هذا الأعضاء بالجمعية التشريعية قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد على بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك ، ولهم أن يضموا إليهم من يختارون فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا ، فى استقلال مصر استقلالا تاماً» .

وتتعدد الملاحظات على الفترة التالية :

١ - إن هذا التوكيل ظل السند الشرعي لوجود أكبر أحزاب التجربة الحزبية الثانية حتى نهاية حياة زغلول باشا ، وأنه عندما قرر الوفد أن يتخذ الشكل الحزبي التنظيمي دون أن يضع له برنامجا فيما جرى يوم ٢٦ إبريل عام ١٩٢٤ حين اجتمعت الهيئة البرلمانية للوفد واتفقوا على أن يكون الحزب الذى يتم تشكيله تحت اسم «هيئة الوفديين» ، وأن يكون له ناد باسم «النادي السعدي» كما اتفق على تكوين لجنة تنفيذية من النواب الوفديين ومن ممثلين للمديريات تنتخبهم الجمعية العمومية ، وقد تم من خلال هذه الخطوات تحول الوفد إلى حزب سياسي من الناحية الواقعية وإن لم يضع له برنامجا .

٢ - وبينما تجمد برنامج الحزب الكبير عند التوكيل فإن شخصية الزعيم اتخذت فى التعاظم ، الأمر الذى ترجم عن نفسه فى أشكال مختلفة ، الاستقبالات الهائلة بعد عودته من نفيه الأول عام ١٩٢١ ونفيه الثانى عام ١٩٢٣ ، الحفاوة التى كان يلقاها فى كل مكان ، مظاهرة الشعب المصرى له بعد خلافه مع حكومة عدلي يكن عام ١٩٢١ ، ما جرى خلال انتخابات ١٩٢٣-١٩٢٤ من شيوع المقولة «لو رشح سعد حجرا لانتخبناه» ،

وأخيرًا ما عبرت عنه نتائج هذه الانتخابات حصل أنصار سعد على ١٩٢ مقعدا من مجموع مقاعد مجلس النواب البالغة ٢١٤ وتحول الرجل بذلك إلى أسطورة دخلت ضمير الشعب المصري ، ولم يكن بالإمكان أن يقف إلى جوارها أي برنامج للحزب الكبير .

٣ - يلفت النظر أنه كانت هناك خلال هذه التجربة علاقة عكسية بين البرنامج مبين شخصية زعيم الحزب ، إذ بينما يكاد يختفي البرنامج مع شخصية مثل سعد زغلول ، فإن رجال الأحرار الدستوريين ، أول الأحزاب المنشقة عن الوفد حاولوا أن يتقدموا للمصريين ببرنامج متكامل ، وهو البرنامج الذى أعلنوه مع قيام الحزب ، وكان يتألف من ثمانية عشرة مادة ، احتوت المواد الست الأولى منها على برنامج الحزب السياسي . . استمرار العمل لاستكمال الاستقلال الفعلي التام وإنهاء الاحتلال البريطاني ، إدخال مصر عصبة الأمم باعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة ، تأييد النظام الدستوري والمحافظة على سلطة الأمة ، الدفاع عن حقوق الفرد وحريته وإعداد وسائل الدفاع عن الوطن ضد كل اعتداء .

ويمكن أن يعزى اهتمام الأحرار الدستوريين بالبرنامج على هذا النحو أنه لم يكن هناك من زعماء الحزب الجديد من يمكن أن يضارع أو يقترب من الشخصية الكاريزمية لسعد زغلول ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد ضم الحزب مجموعة من أهم المثقفين الذين أدركوا أنه لا يمكن وجود حزب بدون برنامج ، فى طليعتهم الدكتور محمد حسين هيكل ومجموعة الشباب الذين تحلقوا حوله وحرروا جريدة السياسة .

غير أنه عندما وضعت التجربة محل الاختبار خلال انتخابات عام ١٩٢٣-١٩٢٤ بين الزعامة الشخصية لسعد زغلول وبين البرنامج الشامل للأحرار الدستوريين اكتسح الاعتبار الشخصي الجانب الخاص بالمبادئ ، فبينما حصل أنصار سعد على ١٩٢ مقعدا من مقاعد المجلس كما سبقت الإشارة لم يحصل أصحاب البرنامج سوى على ١١ مقعدا ، الأمر الذى عبر معه أعضاء الحزب عن خيبة أمل شديدة . . الدكتور محمد حسين هيكل عبر عن ذلك بقوله : «نتائج الانتخابات زعزعت من ثقتنا إلى غير حد» ، محمد على علوبة قال : «الأمية فاشية والتضليل عام والحقائق مستورة» .

ولعل هذه التجربة هى التى دفعت الأحرار الدستوريين بعد ذلك إلى الكفر بالبرامج وإلى مناصرة الحكومات المناهضة لسعد زغلول والوفد بغض النظر عن اتفاقها أو اختلافها مع المبادئ التى قام عليها حزبهم فقد انضموا لوزارة زيور (١٩٢٤-١٩٢٦) وفرضوا حكومتهم الاوتوقراطية خلال عصر محمد محمود (١٩٢٨-١٩٢٩) والتى عطلوا خلالها الدستور رغم تمسكهم باسمهم أنهم أحرار دستوريون .

٤ - مع كل ذلك يصعب إنكار ما ترتب على وفاة سعد زغلول باشا عام ١٩٢٧ من ضعف شديد ألم بالوفد ، صحيح أن خليفته مصطفى النحاس كان ذا سمعة سياسية طيبة ، ولكنها لم تكن تعدل أبدا المكانة التى كان قد اكتسبها زعيم الثورة ، خاصة وأن النحاس درج على نفس خطى الزعيم الراحل فى أنه لم يسع إلى وضع برنامج ، كل ما عمد إليه لتقوية الزعامة الشخصية أن اتخذت الزعامة شكلا ثنائيا بتلك الصداقة العميقة التى ربطت بينه وبين مكرم عبيد الذى حل محله فى سكرتارية الوفد . وأصبحت تلك الزعامة تعتمد على دعامتين . . الرئيس الجليل والمجاهد الكبير .

غير أن خطورة هذا الطابع الشخصي أنه عندما انفرطت هذه الثنائية بعد أزمة الكتاب الأسود (١٩٤٢-١٩٤٣) وجد الرجلان نفسيهما فى العراء ، أصاب زعامة الحزب وهن شديد إذ لم يكن البديل جاهزا ، ونقصد به البرنامج .

٥ - ثم أن الانشقاقات التى حدثت فى الوفد خلال تلك الفترة جرت على أساس شخصي وليس على أساس برامجي ، فانشقاق عام ١٩٣٨ الذى نتج عنه قيام الهيئة السعدية بزعامة أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشى ، كان بالأساس خلافا بين النحاس والنقراشى ، وما لبث ماهر أن انضم للأخير ، وتبدو الطبيعة الشخصية للخلاف أكثر عندما نلاحظ أن المنشقين بدلا من أن يدعوا أنهم الأكثر تمسكا بمبادئ الوفد أكدوا أنهم الأكثر انتماء لسعد ومن ثم تسموا بالسعديين بينما وصفوا خصومهم بالنحاسيين .

ويكتسب انشقاق مكرم عبيد نفس الطابع ، ويلفت النظر أن حزب الكتلة الوفدية الذى أسسه الرجل على إثر خروجه من الوفد قد ظلت الوثائق البريطانية توصفه «بالمكرميين» للطابع الشديد الشخصية الذى التزم به .

٦ - غير أن لا ينفى عن التجربة الحزبية الثانية وجود أحزاب البرامج ممثلة فى

الأحزاب العقائدية كان فى طليعتها «الحزب الاشتراكي المصري» الذى تشكل عام ١٩٢١ وجماعة الإخوان المسلمين التى ظهرت إلى الوجود عام ١٩٢٨ وجماعة مصر الفتاة التى تأسست عام ١٩٣٣ ثم الجماعات الماركسية التى ظهرت خلال الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها ، وهناك بعض الملاحظات متصلة بهذه الجماعات السياسية :

- أنها قد تعرضت لاضطهاد أحزاب «اللا برامج» فالحزب الاشتراكي المصري كان الذى أودى به وزارة سعد زغلول عام ١٩٢٤ والجماعات الماركسية ظلت أسيرة العمل السري نتيجة لترسانة القوانين التى أصدرتها الأحزاب التقليدية والتى حرمت العمل الشيوعي ، أما الصراع بين الأخوان المسلمين وبين الأحزاب الوطنية ، خاصة أحزاب الأقلية ، وعلى وجه الخصوص الهيئة السعدية ، وصلت إلى حد التصفيات الدموية المتبادلة ، وهو صراع امتد مع مصر الفتاة والتى بدأت سنيها الأولى بتحدي الوفد حين شكلت جماعة القمصان الخضراء فشكل الوفد فى مقابلها جماعة القمصان الزرقاء .

- أنه كان لبعضها الطابع الشخصي ، فقد كان مفهوما أن ترتبط نشأة الإخوان المسلمين بشخص مؤسسها الشيخ حسن البنا ، ولحكم الطابع الديني للجماعة فقد اكتسب الرجل قداسة عند أنصاره ، لا زالت قائمة حتى اليوم ، وهو ما حدث ولكن بدون قداسة مع شخص مؤسس مصر الفتاة الأستاذ أحمد حسين .

ونتوقف عند هذا الأخير لأنه انفرد بوضع خاص بين الجماعات الأيديولوجية الأخرى ، وهو أن برنامجه كان يتقلب تبعا للمتغيرات التى كانت تصيب قناعاته ، فبينما غلب على برنامج جماعته السياسية الطابع الفاشي مع نشأته خلال الثلاثينات ، زاوج بين هذا الطابع وبين الجانب الديني فى بداية الأربعينات عندما سمى جماعته بالحزب الوطني الإسلامي ، وهو ما غيره مرة أخرى فى أواخر نفس العقد وبعد أن بدا المد الاشتراكي فى تصاعد مستمر ، فتسمى بالحزب الاشتراكي .

بداية متواضعة للتجربة الحزبية الثالثة حدثت عام ١٩٧٤ بقبول وجود منابر داخل الاتحاد الاشتراكي تطورت بعد عامين بظهور ثلاث تنظيمات ، وسط ويمين ويسار ، تحولت فى نوفمبر عام ١٩٧٦ إلى أحزاب وإن ظلت جميعها منبثقة عن الاتحاد

الاشتراكي ، حتى عام ١٩٧٨ حين ظهر الوفد وكان أول الأحزاب التى تظهر من خارج التنظيم الحكومي العتيد .

وتبدو قضية الفصل بين البرامج والزعامة الشخصية فى هذه التجربة إشكالية متعددة الجوانب

- التجربة فى حضن السلطة ، ومن ثم لم يكن لها المذاق الوطنى الذى كان للأحزاب خلال التجربتين السابقتين ،خاصة وأن الاحتلال كان قد حمل عصاه ورحل قبل عشرين عاماً .
- أنها نشأت بعد أكثر من عشرين عاماً من تجربة التنظيم السياسي الواحد ، هيئة التحرير ، الاتحاد القومي ، الاتحاد الاشتراكي ، ومن ثم كان طبيعيا أن ترث بعض جيناته . .

من هذه الجينات العلاقة الحميمة بين الحزب ومؤسسة الرئاسة ومن ثم كان طبيعيا أن يكتسب حزب الأغلبية مكانته من مكانة الرئيس الشخصية بغض النظر عن البرنامج ، وهى المكانة التى بدت مع ما جرى عام ١٩٧٧ من تأسيس الحزب الوطني الديمقراطي والبقاء على حزب مصر الذى كان حزبا للحكومة من قبل ، فقد حدث من جراء ذلك المشهد الهزلي بالهجرة الجماعية إلى حزب الرئيس وترك الحزب القديم خاويا على عروشه بالرغم من أنه يصعب القول أنه كانت هناك أي فروق بين برامج الحزبين ، وإنما قد جرى الجميع وراء شخص الرئيس .

المحتويات

الموضوع



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة